ربع ساعة بعد النهاية

شوقي عبد الحميد يحيي

إهداء

إلي/ مصطفي محمد محمود إسماعيل

عله يجد ما قد يغفره لنا

جدو / شوقي

ووا عد وموعود ..

انخر ست الألسن وتحجرت الكلمات على الشفاه . شخصت الأبصار، وانقسم الحضور بين ذاهل و مشدوه، البعض يكاد يكون قد أغشي عليه، لم ينج من ذلك إلا الصحفيون ورجال الإعلام الذين كانت قد امتلأت بهم قاعة المحكمة بعد أن كان قد أعلن عن أن جلسة اليوم للنطق بالحكم في تلك القضية التي أصبحت حديث المجتمع طوال الفترة الأخيرة، ذلك الذي شكل قوة ضغط على القاضي وجعله شبه متوتر علي غير عادته، وهو الذي يود أن يُنهى حياته القضائية علي خير وجه ويترك بصمة تحسب له أمام الأجيال الجديدة من القضاة، فأن يُكتشف مقتل كل هذا العدد من الذين روعوا مجتمعا بأكمله علي يد واحد منهم فالأمر يثير العديد من التساؤلات والتكهنات والفضول .

وإن كانت الأدلة قد يشوبها بعض الشوائب التي لا تجعل اطمئنانه يصل إلي الدرجة النهائية ، إلا أن الناس لا تطيق صبرا وتعوم في بحر من الشفقة والشماتة والحيرة .

ولم يكن الصحفيون ورجال الإعلام استثناء من تلك الدهشة التي اعترت الكثيرين من الحضور إلا لأنهم لم يكونوا يعلمون شكل ذلك القادم، ولا يعلمون بالطبع أنه قادم من ذلك العالم الذي لا يعود من

يذهب إليه ، بل إن الكثيرين من الحضور لم يكن يعلم أن هذا القـــادم من العالم الآخر هو أحد أبطال تلك المذبحة التي أثارت الـــرأي العـــام والتي من المفترض أن يصدر الحكم فيها اليوم .

امتدت لحظة الذهول فبانت أعواما ، إلا أن هرجا وصـــراخا تعالي في القاعة هلعاً وخوفا . لم يكن القادم يختلف كثيرا عن أولئـــك المتواجدين في القاعة إلا من بعض الشحوب البادي علي وجهه وبروز في عينيه وبعض النحول علي جسده الفارع ، الأمر الذي أثار فضـــول البعض وجعلهم يتساءلون عن سر هذه الجلبة، خاصة أولئك الذين لـــم يسبق لهم معرفته ، تعالي صوت القاضي محـــذرا القـــادم مـــن هـــذه الضوضاء التي يحدثها ، غير أن القادم لم يمهله كثيـــرا فســـرعان مـــا قاطعه:

هل لك سيدي أن تطلب من السادة الصحفيين والإعلاميين أن يغـــادروا القاعة وتتفضل بإعلان الجلسة سرية ؟

ازداد القاضي اندهاشاً وبدا التوتر علي وجهه ، أحس أن الجلسة مـــن الممكن أن ينفلت قيادها من يديه فأسرع قائلاً :

من أنت ؟!وكيف لك أن تحدد أن تكون الجلسة سرية أو علنية و ..

– ستعرف حالا سيدي من أكون ولكن فقط أطلب أن تكـــون الجلسة سرية .

- قل أولاً من تكون و إلا أخرجتك خارج القاعة ، ثم ليس لدينا ما يدعونا لذلك وما نقوله في السر نستطيع قوله في العلن .
- لمن تقول هذا سيدي القاضي ؟ ألا زلتم قوماً لا يتعلمون الدرس ؟
- أي درس تقصد ؟!
- الدرس الذي ألقاه عليكم ذلك الشيخ حامل دفاتر العمدة في فيلم الزوجة الثانية ؟ !!

ضجت القاعة بالضحك لكن القادم سارع بلهجة عسكرية لا تخفي علي الكثيرين من الحضور الذين كانوا قد بدأوا يتعرفون علي القادم وقد بدأ بعضهم بالهمس ، أليس ذلك هو عمر ؟ فيرد آخرون إنه هو ولكن كيف ذلك ؟ !!!! .

أنا لا أمزح أيها السادة ولكنها الحقيقة فقد صرخ الرجل دون أن يصرخ لكنكم لم تعوا الدرس ولم تستفيدوا منه واعتبرتم الأمر مجرد فكاهة .

فقط أود أن أقول أنه لا داعي لهذه الكلمات الرنانة فكم قلناه وصدقه العامة والبلهاء حتى كدنا نحن أنفسنا نصدقه في فترة من فتراتنا .

تمايل عضو الميمنة علي القاضي وهمس فـي أذنـه بعـض الكلمات فهز الأخير رأسه علامة الموافقة لكنه استمر في توجيـه حديثه إلي القادم:

- ألا تري أنك قد تماديت وأطلت علي الرغم من أننا لم نعـرف بعد من تكون وكيف دخلت بهـذه الطريقـة المقتحمـة دون مراعاة لحرمة وقدسية المحكمة ؟
- سأبتلع هذه الكلمة الرنانة أيضا إذ يبدو أن شيئا لم يتغيـر ، وعلي العموم سيدي القاضي فإن الوقت المسموح به لي لـيس كثيرا ، فما جئت إلا لمهمة محددة ولذا فإن عليّ الدخول في الموضوع مباشرة، فعندما تلتبس الأمور علي فهم البشر يُنزل الله كلمته التي تضيء ظلام القلوب ليعرفوا بعضا من علمـه وحكمته ويستبينوا في أي طريق يسيرون .

من جديد تعالي الهمس في القاعة اندهاشا وبدت بعض علامـات الاستفهام علي الوجوه فعلا صوت القاضي محذرا فاستطرد القادم :

بالطبع يا سيدي ليس لدي بطاقة شخصية أو حتى عائلية ، فقـد تركت كل ذلك في عالمكم ، أما نحن هناك فنُنادي بأسمائنا وأسماء أمهاتنا، ولذلك فأطلب المعذرة عن ذكر ذلك ، وأعتقد أن من بـين الجالسين هنا علي المنصة أو في القاعة من يعرفني جيدا ويستطيع التعرف عليّ بل وضماني لديكم . وعلينا في هذا اليوم الاستثنائي

التجاوز عن هذه الإجراءات الشكلية والاكتفاء بالمضمون ، ولكن أحب في البداية أن أوضح السبب الذي دعاني لطلب المثول أمامكم في هذه الجلسة ، فقد خشيت أمام كثرة الأدلة أمـــام عـــدالتكم أن تحكموا علي هذا السيد الماثل أمامكم بالإعدام ، وبذلك تكونون قد حكمتم عليه بأخف الأحكام وهو الأمر الذي يقض مضجعي هنـــاك وُيزيد من تأجج نيران اللوعة ، وهو الذي أعتبره المســـؤل الأول عن تلك المذبحة ، وعندي من الأدلة ما سأضعه حالاً أمامكم ، فإن أقسي الأحكام لا تكفيني ، وقد أصبحت أشفق عليكم تصـــوركم أن الموت هو أقسي وأقصي حكم يمكن الحكم بـــه علـــي إنســـان ، وأقسم لكم أيها السادة أنه لمخطئ من يظن أن الموت شر ، وذلـــك بالطبع قصور في النظر ، فبالطبع منكم من يتصـــور أن المـــوت غيبوبة وعدمٌ ، كرقدة النائم ، وهنا أتساءل ، من منكم لا يتمنـــي نومة لا يُزعجه فيها أشباح ولا بشر وهو الذي لا يســـتطيع حتـــي التخفف من أحلام اليقظة ، فكيف به إذا تيسر له الانعتاق من أحلام النوم ؟ .

ومنكم كذلك من يتصور الموت ارتحالاً جسديا من عالم إلي عالم آخر ، فخبروني أين هو ذلك الذي لا يريد هذا الارتحال بعد ما خبر غدر الصحاب وظلم العباد وقهر الرقـــاب ؟ ولكنـــي الآن ومن موقع التجربة أستطيع أن أبسط لكم الأمر وأقول أن [الموت

هو كسرٌ لجدران سجن الزمن بعد التحرر من قيود الجسـد الـذي عنده تتكشف الحقائق ويصبح البصر حديدا ، وعندها إما شقي وإما سعيد ، وهذا يتوقف علي ما قدمه المرء لنفسه ، وما يقدم المرء إلا سوءاً ، ومن طال به البقاء ، زاد به الشقاء] فأن تُكسـروا هـذه الجدران لهذا الماثل أمامكم، فأنتم تمنحونه الحرية التي لم تكن لـه في يوم من الأيام، لذا فألتمس من عدالتكم الحكم عليه بأقسى عقوبة نراها الآن ، وهي الحكم بالحياة .تعالـت أصـوات الضـحكات الساخرة وعم الهرج من جديد، وتمايل القاضي علي مساعديه وعاد ليطرق بمطرقته منبها القادم الذي استطرد يقول:

أرجوا أن تأخذوا الأمور بجدية أكثر وألا يقـاطعنني أحـدٌ ، ولكم الحكم في النهاية وسوف أعود من جديد إلي علاّم الغيوب الـذي يعلم ما لا أعلم وما لا تعلمون فكيف أواجهه إن أنا لم أقل الصدق بـل وكل الصدق فوالله لو علمتم الحقيقة لما ضحكتم مثلما تضحكون .

***

انتزع السيد نافع داخل القفص الحديدي ابتسامة مريرة ملؤها الأسـى والسخرية مما يدور ويري وجرفته دوامة الأيام في بؤرتهـا ، فـراح يدور بدورانها ، فغيّبته عمن حوله .

الآن تتحدث الحكمة يا من لم يكن يعرف للعقل أو الحكمة طريقا ؟ أيكون علي المرء ألا يعرف الحق إلا إذا رأي الحق عينا ؟ أين كان ذلك العقل والوفاء يوم دبرت لصديق عمرك المكائد ، ويوم كنت الذراع الباطشة و يوم قابلت ناريمان في فايد ؟]

***

إن بقاء هذا الماثل أمامكم فترة كبيرة في هذه الحياة ، يزيد فرص ارتكابه المعاصي ، وبالتالي يزيد فرص العذاب في الآخرة ، فوالله مهما عمّرَ في هذه الدنيا ، فهي لحظات ، ومهما تنعم فيها فإن لحظة واحدة مما سيري لهي كفيلة ألا يكون قد نَعِمَ عمره بأكمله . انبري عضو اليمين قائلا أليس من الغريب أن تصدر الموعظة منك أنت وكل يعرف من أنت وما قدمت ؟!

لا تتعجل الأمور يا سيدي ، ولا تتعجب فوالله من رأي ما رأيت لا يملك إلا أن يقول أكثر مما قلت ، وعلي العموم دعوني أبدأ الحكاية ، ولكن أريد أن أنبه إلي شيء يجب أن تعوه جيدا ، أعلم أنكم لا تستطيعون إدراج شهادتي كتابيا في محاضركم ، لأنكم بالطبع لن تستطيعوا الحصول علي توقيعي للإقرار بما جاء علي لساني من أقوال ، ولكن عليكم أن تُحَكموا ضمائركم وتبحثوا لأنفسكم عن وسيلة

مبتكرة لإثبات شهادتي ، كل ما أرجوه وخوفا عليكم ألا يحاول واحدٌ الخروج ورائي أو البحث عن الطريق الذي سأسير فيه، فمن دنا فليتبوأ مقعده حيث يشاء مما لا علم له به . و لنبدأ من البداية .

***

لو أني علمت ما فعلت وأنت بيننا ، لما كنت مت ميتة واحدة ، كم تمنيت أن تعود إلينا وأفعل بك ما أريد ، أو أن يأخذني الله إليك فـأري ما يُفْعَل بك فتهدأ الدماء في عروقي ، فلا يمكن إلا أن تكون هناك حيث يجب أن تكون ، تتقلب علي نيران جهنم التي أريتها ناريمان قبل أن تلقي ربها ، وهل يغيب ما فعلته عن ذاكرتي ما حييت ، بل وربما بعد أن يضمنا عالم الغيب ، يوم أن تركتك في فايد ، ولا أظنك تنسى ، ولغبائي كنت قد عرفتك علي ناريمان التي كانت أطهر من أن أعرفك أنت عليها ، تعددت سفرياتي بين اسطنها و فايد بعد أن كنت قد نجحت في تعمير المحل الذي تركه الحاج مصطفي من جديد ، وبدأ النشاط فيه يزدهر بعد ركود ، لذا لم يكن ما اقترحه عبد الفتاح بأن كل ما يتم شراؤه من ناتج عملياتهم يكتب باسمه ، فلم أكن أجد بدا من ذلك بعد أن أصبحتُ موزعا بين الصعيد وفايد .

***

علا الهرج من جديد في القاعة فطرق كبير القضاة بمطرقته وطلب الهدوء من القاعة ، ثم وجه حديثه إلي السيد نافع في حدة مهددا إن لـم يلزم الصمت فسيضطر لإخراجه من القاعة . وطلب من القادم مواصلة الحديث .

لم نكن نفعل شيئا طوال اليوم ، بل كنـا نعـيش حياتنـا مثـل الآخرين ، هذا لمن يستيقظ منا في النهار ، وكانت عملياتنا تبدأ مـن بعد صلاة العشاء وحتى الفجر ، فأصبحنا نُعَرفُ بزوار الليل، واتسعت مساحة عملنا حتى شملت القـرى المجـاورة فالأبعـد والأبعـد بـل والمحافظات المجاورة فالأبعد وهكذا ، وكلما اتسعت المسـاحة كلمـا ازداد رجالنا ورغم ذلك يمكن بسهولة ترتيب قربنا من عبد الفتـاح ، و كان السيد نافع هو السابع في هذا الترتيب ، وعلي الرغم من أنني كنت الأول فيه لسنوات ، إلا أنه كان قد بدأ في تصعيد السيد نافع إلي جواره واستمالته لأسباب بدت غامضة علينا مثلما بدا الكثير من الأمور فـي الفترة الأخيرة حيث انفرد بالكثير منها ، إضافة إلي عصـبيته الزائـدة وعدم قبوله لأي نقاش حتى تصورنا أنفسنا في فترة أننا مجرد تلاميـذ لديه ، وبدأت مساحة التباعد تتسع بيني وبينه ،بينما تتضاءل بينه وبين السيد نافع ، فأصبحت العلاقة بيني وبينه في الظـاهر كطرفـي سـلك الكهرباء المغطي ، يحتضن كل منا الآخر ، بينما – فـي البـاطن – إذا تلامس كلانا مباشرة ، كانت الشرارة التي لا يمكن حساب نتائج ما

تُحدثه من شرر ، قد يصيب كلانا ، كما قد يصيب الآخرين ، فأصـــبح كلانا يخشى الآخر ، بينما لا يستطيع الجهر به ، عندها كانت النقــاط لابد أن توضع فوق الحروف ، فبدأت في استمالة أكبر عدد من أفــراد الجماعة ، والكثير من المعاونين ، حتى استطعت أن أزرع عيوناً لــي لديه هو ، خاصة بعد أن كان قد استقل في منزله الجديد علي حــدود القرية شبه منعزل عنهاً ، حتى أنه كان يقرر في الكثير من الأحيان أشخاصاً بعينهم لعملية معينة ، ويتم الاتفاق عليهم ، بينما كنت أُكلف آخرين بها ، ويتم لي ما أقرره ، وكان يقرر القيام بعملية معينـــة فـــي إحدى القرى المجاورة ، فتتم في قرية أخري ، و يتصورها تمت كمـــا أمر هو ، حتى كنت قد أوشكت علي عزله عن المجموعة ، فأصبح هو الصورة وأنا الأصل ، هو الظاهر ، وأنا الباطن ، هو الملــك ، وأنـــا رئيس الوزراء ، وقد ساعدني في ذلك انشغال عبد الفتاح باتصـــالات كانت قد بدأت بينه وبين بعض المجموعات التي كانت قد بدأت تظهــر في بعض القرى البعيدة ، وبدأت تحد من نشاطنا فيها ، فكان لا بد من التنسيق والتعاون فيما بيننا ، وسره أنها قـــد جعلـــت منـــه مرجعـــاً ، تستشيره في كثير من أمورها ، حتى كاد أن ينصب نفسه زعيماً عليها كلها ، لا مجموعتنا وحدها ، ويبدو أنه كانت قد تسربت إليه بعـــض الأشياء ، ولا أشك في أن هذا السيد القابع أمامكم الآن هو الذي تســلم أذنه وراح يصب فيها سمومه ، خاصة وأنه لم يكن يجمعنا حـــب فـــي

يوم من الأيام ، فبدأ التغيير يظهر عليه وأخذ ترتيب هذا السيد نـافع في تصاعد حتى كان قد وصل إلي أن أصبح هو الأول فيه ، وبـدأت أستشعر الخطر القادم لا محالة ، فكان حتماً أن يعلم كل منا نصيبه .

***

كنت يا من تتكلم بالحكمة اليوم قد وفدت إلي فايد للعمل بإحـدى وحدات الجيش كما علمتُ بذلك ، وليلعب القدر دوره كاملاً ، التحقتَ بإحدى الوحدات العاملة بالإسماعيلية ، وكان حتماً أن يكون اللقاء هناك لتتعرف علي ناريمان التي كانت قد استقلت بالعمل في المحل ، بينمـا كنتُ مشغولا بتدبير احتياجاته ، ولو أنك تـذكر اسـتقبالي لـك فـي حينها ، تناسيت حينها كل ما كنت أعرفه وأحمله لك ، ولم أجد حرجا أو أفكر في الخوف من تعارفك علي ناريمان التي ما إن رأيتها حتـى بهرك حسنها ورشاقتها وخفة ظلها ، ولم تكن تستطيع إخفـاء ذلـك ، وربما لم تكن تعبأ بإخفائه ، فكان غطاء وجهك قد سقط من فتـرة ، وللأسف أني كنت أعلم ذلك ، كنت كمن لم ير امرأة من قبل ، رأيتك و أنت تتبعها بنظراتك الجائعة المسـعورة ، وكنـتُ متأكـدا مـن معرفتها لما يدور في أعماقك ، إذ لم يكن ذلك يغيب عـن فراسـة المرأة ، وكنتُ أشعر بها وهي تتابع نظراتك غير البريئـة المخترقـة لكل محارمها كلما راحت أو أتت ، ولم أكن أخاف عليها ، فأنا أعلم من

تزوجتها ، وكيف كانت تربيتها ، تجاهلتْ الأمر واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، غير أن الأمر تجاوز النظرات إلي الكلمات ، عنفتك ونهرتك ، لكنها خشيت أن تُبلغني بما يدور ، حتى كنتُ قد ذهبتُ في إحدى نوبات العمل باسطنها ، لم تنقطع أنت عن التردد علي المحل كلما أتاحت ظروف الوحدة عندك بذلك .

***

ترددت كثيرا في مُفَاتحتِه في الموضوع بعد أن كنت قد ضمنت عددا لا باس به من الآخرين في الوقوف إلي جانبي إذا ما حدث أي غدر منه ، ولكن ربما كان الخوف وربما كانت أسباب أخري تلك التي جعلت الآخرين يتحفظون فكان لا بد من البداية ، طلبت إليه أن نبدأ في تحديد نصيب كل منا فيما تم شراؤه من الأرض وقد بلغت اليوم مساحة تفوق ما كنا نحلم به ، وكأني قد لمست منه وتراً لا يَحتمل لمسه ، ثار ثورة هائلة مدعيا أنني أخونه بذلك ، فأكدت له أن المسألة ليست خيانة وعدم خيانة فقط جاء اليوم الذي يجب علي كل منا أن يعرف حدوده ونصيبه . فاستطرد وقد ازدادت عصبيته : ثم إن ذلك سيؤدى حتما إلي تفتيت المساحة ولن نستطيع عمل مزرعة أو حتى حظيرة ، وعموما لقد تسلمت بالأمس إيراد الأرض المزروعة من المزارعين ، فلنجلس الليلة ويتم التحاسب عليها . إلا أن الشجاعة

كانت قد وافقتي فأعلنت إصراري علي ضرورة تقسيم الأرض قائلا لقد كان الحلم أن يصبح لنا مزرعة لا أن يكون لكل منا مزرعة و مصنع وأرض للزراعة وأشياء أخري ، كما كان الاتفاق أن نجمع ما يتم عليه بناء المزرعة ثم نقلع عن أفعالنا ونتوقف ع ..... .

غير أن الصاعقة كانت قد داهمتني عندما هم برفع يده ليصفعني علي وجهي وهو يردد : بل إنك أنت الآن الذي يريد أن يكون لكل منا مزرعة ثم ..... من يريد أن يتوقف فليتوقف أنا لا أمنع أحدا والباب يفوت .... فكانت الأمور بذلك قد تجاوزت كل حد وفاقت كل طاقة وشعرت أننا ما شقينا الليالي وفعلنا ما فعلنا إلا لَنَكونَ له وحده تلك المزرعة الحلم ، وتأكد لي ضرورة الإسراع بعمل شيء قبل أن يبدأنا هو – كما تعود – بعمل يتخلص به مني .

عم القاعة سكون كأنه سكون القبر ، تسلطت الرؤية أمام القادم ، اعتصر التفكير رأسه في محاولة للتذكر ، أكان ذلك ما رأيته بالفعل ، أم أنه أحد أحلامي التي تطاردني ليل نهار ، كنا نرقد جنبا إلي جنب في حجرة ضيقة ، جاء كائنان غريبان وأجلسانا ، لم أعرف كيف أن هذه الحجرة احتملتنا جميعا ، تولي كل كائن إقامة واحد منا وراح يضرب فيه بمطرقة حديدية ، راح كل منا يدافع عن نفسه ، يضرب بيديه في الكائن حتى تعبت أيدينا وأصابنا الألم والإرهاق ، تحاملنا معا ، نظر كل منا إلي الأخر ، تأكدنا معا ألا أحد معنا ، وقف كل منا

منهك القوة ، ولم يدر أحدنا كيف انبعثت فيه القوة من جديد ، راح كل منا يضرب في الأخر بكل قوته ، استطاع عبد الفتاح أن يلقيني أرضا ، انكفأ علي وأمسك برقبتي ، يخنقني ، أحاول الخلاص ، لا أقدر ، يخرج لساني ، الشرر يتطاير من عيني عبد الفتاح ، أختنق ، أحـاول أن أصرخ ، الصوت لا يخرج ، أحاول من جديـد ، ينـدفع الصـوت منفجرا كتيار ماء محبوس انفتح أمامه السد فجأة ، تنبهت القاعـة ، اندهش الجميع ، بينما أصاب البعض الرعب ، نظر إليه كبير القضـاة متفحصا ، طلب منه استكمال حديثه ، هز رأسه بعنف ، حاول التذكر ، استأنف الحديث :

حتى هذه اللحظة ورغم ما تكشف لي من مكاني الذي صـرت فيه الأن ، هل كان للسيد دور في تغيير العلاقـة بيننـا علـى وجـه اليقين ؟ أستطيع أن أجزم الأن بذلك ، وهو الذي دعم الخوف لدي عبد الفتاح من جانبي حتى أصبحت شبه موقن أنه قـد أصـبح يخطـط للتخلص مني.تملكتني الوساوس وسيطر الشـك حتـى بـتُ أتمنـى الخلاص منه قبل أن يتخلص هو مني والانفراد بالمجموعـة وليـأت حساب السيد نافع فيما بعد ، وعندما يتعرض الإنسان - في وجوده الدنيوي - لموقف تعجز فيه المعرفة عـن الإمـداد بـالزاد وتعجـز الكلمات عن الإقناع ويستشعر المرء بوادر الضياع ، تبرز الفطرة التي تجعل قتل الأخر شرطاً لوجوده .

تصاعد الاستياء وتحول إلي غضب ، فسخط ، فتفكيـر فـي الثورة، وكانت حتمية الانتقام ، تحولت الأمنية إلى همس وبات الهمس اتفاق غير مكتوب ولا منظور ، وكأن الجميع كان علي موعد .

في الليلة الموعودة وكنت قد دبرت الأمر مع نفسي فما كان لي أن أشرك أحدا في مثل ذلك ، كذلك لم تكن الثقـة فـي الآخـرين تكفـي لإشراكهم ، و رغم سابق الاتفاق الذي كان يقضي بتـدخلهم إذا مـا حدث شيء من جانبه ، قررت ضرورة الخلاص منه قبل أن يتخلص هو مني ، كنت أعلم جيداً أنه لن يستطيع الخلاص مني بغير الموت ، وقد وصل إلي الأمر الذي لا يتردد معه في الخلاص من أي شـيء أو أي إنسان يقف في طريق تحقيق ما أراد . دخلت عليه أحمل مسدسي وقد تملكني الغضب والثورة والرغبة ، ولم يكن ذلك بالشيء الصـعب عليّ حيث كثيراً ما حدث ذلك بل صار مألوفاً ، إلا أنه ما أن رآنـي حتى بدا كمن يتوقع مجيئي إليه في تلك الساعة ، غير أنه ربما لم يكن يتصور أنني أستطيع فعل ما انتويته ، و ما أن رأي المسدس في يدي مصوبا نحوه حتى ارتسمت الدهشة والمفاجأة علي وجهه الذي تحـول إلي الصفار بدلاً من السمرة التي كان عليها ، ولأول مرة أري الخوف والرعب في عينيه إلي الدرجة التي أخرست لسانه وأذهبت الضوء في عينيه ، ودون كلمة مني أو منه ، وقبل أن أضع إصبعي علي الزنـاد كان قد تخشب في مكانه ولم يُبد حراكاً ، تصورت – في البدايـة – أن

الخوف قد شله ، ترددت في الضغط علــي الزنــاد ، ودون أن أغيــر وضع المسدس في يدي ، أزحته بقدمي خشية أن تكون حيلة من حيله ، إلا أنه انبطح أرضا دون حراك ، فتبينت ساعتها أنه قد فارق الحياة ، كنت أعلم أنه يعاني بعض المتاعب في القلب ، كما كان السكر قد بــدأ يحدث له المشاكل ، غير أني ما تصورت أن تكون النهاية بهذا الشكل ، وقفت مذهولاً لا أدرى ماذا أفعل إذ رغم كل شيء كان هنــاك مــا يجمعنا معا ، ربما الصداقة التي طالت بيننا ، ربمــا المخــاطر التــي تعرضنا لها معا ، ربما النهاية التي لم أكن أريد لها أن تكــون هكــذا ربما ....

المهم ، نحن نريد وقائع ما حدث وليس أحاسيسك عما حــدث ، اختصر فقد أخذت الكثير من وقت المحكمة .

هكذا قاطعه كبير القضاة .

***

صادفت إحدى هذه المرات يوم الرابع من يونيو ، وهــذا تــاريخ محفور في ذاكرتينا ، أنا وناريمان ، وما كان لي أن أتركها في هــذا اليوم الذي تعودنا أن نكون معا فيه ، لولا دعوة ملحة من عبد الفتاح ، ذهبتُ بوعد أن آتي إليها قبل نهاية اليوم ، كان يوم زواجنا ، وكنــا قد تواعدنا علي زيارة تلك الجزيرة التي شهدت أجمل أيامنــا ، ولمــا

شعرتْ أني تأخرت ، أرادت ألا تتأخر هي عن الزيارة المقدسة في عمرينا ، أصرت ألا تخلف الوعد والميعاد ، وما أن وصلت شاطئ البحيرة حتى كنتَ من ورائها ثملاً مخموراً ، ويبدو أنك كنت قد أفرطت في الشراب ، فما كنت تغادر الوحدة ، حتى تغيب في دوامة الشرب والعربدة ، كانت تلك عادتك وأنا أعلمها ، وما كنتَ تغير تلك العادة إلا بعض الأيام التي كنت تتوجه فيها إلي الصعيد لتوصيل ما استطعتَ تهريبه من السلاح إلي المجموعة ، أو للاشتراك في عملية جديدة ، حاولت أن تغازلها ، نهرتك بعنف كما سبقت أن فعلت ، غير أنك أمام النساء لا ترتدع ، وما كان لك أمامهن أن ترعي حُرمة أو عهدا ، هزتها المفاجأة عندما وجدت يدك تمسك بيدها وتشدها إليك ، نزعت نفسها منك وأسرعت إلي المياه ، ركضتَ وراءها في غير وعي ، هددتك بإبلاغ السيد بما تفعل ، قلت لها في ثورتك المحمومة السكرانة : أنتِ والسيد علي (.......) ونطقت كلمة بذيئة ، لم تكن تملك أن تنطق بغير ما تعودتَ عليه ، لم يكن عندك غير ذلك ، وفي أي مناسبة ، لم تكن تفرق بين الحديث وسط المجموعة ، أو مع امرأة ، ربما لأنك لم تتعامل مع امرأة محترمة ، فكل ما كنت تتعامل معهن ممن يجلبهن لك أذيالك وأتباعك ، خرجت الكلمات منك متباعدة كمن يهذي ، لكنها استطاعت أن تستبين منها :

أتعلمين ماذا يعمل السيد هذا ؟ إنه ليس شهبندر التجار كما يمكن أن تظني ولا يدير أملاك الوالد في الصعيد ، إنـــه لــيس إلا قَطّـــاع طُرق ، لعنتك ولعنت أباك ، اتجهت بوجهها إليك وراحـــت ترشـــك بالمياه ، تتقهقر للخلف إلي داخل المياه ، انجرفت قدمها فـــي منطقـــة غريقة ، وكأنها ما نزلت المياه قط من قبل ، راحت تغرق في الميـــاه ، تقاوم الغرق ، ظننتها حيلة منها ، لكنها كانت ذاهبة إلي عمق لا تصل إليه قدماها ، حقيقة أنك استطعت الهروب كعادتك ، ولم يصـــبك أذي كما لو أنك لم تفعل شيئا ، كنت أيها الغبي تظن أنك ناج ، ربما كنـــت الآن بالفعل تنال ما تمنيته لك ، غير أن ذلك لم يطفئ النيران المشتعلة والتي تحرمني النوم والراحة ، خرج الضابط في المعســـكر المواجـــه للبحيرة بجهاز التنصت يبحث عن متعة يقضي بها وقتـــه ، ظنكمـــا عاشقان ، غير أن ليلته لم تكن كما تمني .

اندفع الدم في وجه السيد فغطي علي سُمرته وأحال وجهـــه إلـــي اللون الأزرق ، تحرك كل جسده في ثورة داخلية حتى خُيل إليـــه أنـــه يندفع ليحطم القفص ويخرج إلي القادم يفترسه ، ولم يكن يشعر أنه كان يحاول كسر الحديد . ارتفع صوته في هياج ألجم الجميع الصمت :

هذا هو الذي جاء اليوم يتكلم بالحكمة ، هذا القاتل الذي لم يحفـــظ للعِشْرة حُرمة ولا يعرف عهدا ، مكنوني منه الآن أُطفئ ناري .. ثـــم افعلوا بي ما شئتم بعد ذلك .

***

استطاع كبير القضاة السيطرة علي الموقف من جديد ليستأنف القادم :

بينما أنا كذالك دخل عبد اللطيف ، وحتى هذه اللحظة لا أعلم علي وجه اليقين ما الذي أتي به في هذه الساعة ، بل ما الذي أتي بالجميع خلال هذا التوقيت ، أهو القدر ؟ أهو الترتيب ، أهناك اتفاق ، كل ذلك ربما ، كل ما أدريه أن الأحداث دارت أمامي كمسرحية هزلية . ظنوا جميعا أنني لم أعد أدرى شيئا مما يدور وهم لا يشعرون أني أرى وأسمع كل شيء ، فقط لا أستطيع الحركة أو الفعل أو الكلام ، وفي لحظة كان عبد اللطيف قد أفرغ مسدسه في صدري ووقف مزهوا ، إلا أنه لم يقف كثيرا حيث دخل خالد وأفرغ مسدسه في صدره ثم دخل سالم وأفرغ مسدسه في صدر خالد ثم دخل محبي وأفرغ مسدسه في صدر سالم ثم دخل جمال وأفرغ مسدسه في صدر محبي ثم دخل نور وأفرغ مسدسه في صدر جمال ... ثم ... ثم دخل هذا السيد فوجد نور وأمامه هذا العدد من القتلى ، غير أنه لم يكن يحمل مسدسا ، فقليلا ما كان يحمله ، إذ كان دائما ما يردد أنه يشترك مع المجموعة بالفكر والرأي ، لا بالمسدس والعصي ، وكثيرا ما كان يصيبني ذلك بالغضب والسخط عليه ، إذ لا أذكر أنه اشترك في واحدة من

عملياتنا ، كان دائما في انتظارنا هناك ، لم يعرض نفسه لما كنا نتعرض له ، والغريب أن عبد الفتاح في الفترة الأخيرة كان قد اقتنع بذلك ، ويؤكد أن دوره إلي جانبه لا يقل عن دور أي منا ، وهذا ما ساعده علي لعب دوره بيني وبين عبد الفتاح .

أرجو أن تترك هذه التفسيرات والاستنتاجات لنا وتكتفي بالوقائع .

تدخل كبير القضاة من جديد .

وقف يتلفت حواليه ، ومثلما كنت كثيراً لا أستطيع تحديد شكل معين لملامحه ، أو لما بداخله ، ولا ماذا يريد أو ينتوي ، فلم أتبين علي وجه التحديد ، أهل كان مذهولا من هول ما يرى ، أم تراه كان مسروراً أن تم الإطاحة بالجميع ليخلو له الجو وحده ؟ ودخل نور ، حاول الكلام فلم يستطع ، أصابت نور ثورة هستيرية ، راح يهذي بما لم أتبين منه إلا بعض التهديدات ، خرج نور مذعورا بعد أن قذف السيد نافع بمسدسه ، وكأنه يعطيه له ، أمسك السيد نافع بالمسدس ، راح يتأمله قليلا في ذهول ، أدرك أن المجموعة قد انتهت ، راح يتأمل ما حوله أدار فوهة المسدس إلي رأسه ، أغمض عينيه ، لكنه تراجع ورفع المسدس ، ربما يكون قد أعاد حساباته ، وربما تصور الفرصة قدمت إليه دون أي تعب منه ، فكان دائما ما يحسبها كما ينبغي ، لذا كان دائما في النهاية هو الكاسب ، وكم من جولة خسرتُها أمامه ، وها هو اليوم يحصد كل ما زرعناه ، اتجه هذا السيد إلي

حيث يرقد عبد الفتاح ، يقلب الجسد المسجي ، يقلب في باقي الجثث ، انتظر برهة ، من جديد صوب فوهة المسدس إلي رأسه ، ولا أظن أنه كان ينوي حتى هذه المرة أن يفعلها ، لا بد أنها كانت إحدى تمثيلياته التي يجيدها ، أغمض عينيه لكنه قبل أن يضع إصبعه على الزناد كان البوليس قد وصل . وأصبح متهما بهذه المذبحة بأكملها وكأن شيئا ما كان مدبرا أو كأن القدر أبى إلا أن يتمَ دوره حتى النهاية . الغريب أن واحدًا منهم لم تقطر منه قطرة دم واحدة !!! .

حينها .. كان قد جاء الملكان وصاح أحدهما بصوت كأنه الصّاخة:-

الدنيا امرأةٌ ملعونة .. واحفظ وعظي .. إن جئت لديها، لا تأمنها .. حتى لو جعلت شرط بقائك .. ألسنة رجالك .. فرشا لمتاعك .

وشاهد ومشهود ..

ضرب عزرائيل الهواء بجناحيه فاختبأت الشـمس وعـم السـواد وأظلمت الرؤية ، تضرعت إليه بكل عزيز لديه أن يمهلني ، أبلغنـي أن القرار قد صدر و لا مفر ، ألمحت إليه أن نعقد صـفقة ، أن يأخـذ جسدي .. فبين الناس أكون من الأموات ، ويتـرك روحـي ، فبـين السماوات أكون من الأحياء . أجابني بتهكم : وهل لغير هذا جئت ؟ ألم تدرك بعد أنك تعيش بلا روح منذ ؟

سارعت علي الفور : إذن امنحني الروح كي أتم المهمة ، وبعدها يكون لك الاثنان معا .

سألني : وما المقابل ؟ أجبت : أكون لك مساعدا .

قال : ولكنك لا تستطيع قتل نملة .

بادرته : في غير الأحياء ، أعيد قتل من ماتوا .. ولم تكن تكفيهم موتة ، أولئك الذين ماتوا بغتة ، وقد كان للجميع أن يشـاركوا ، وقـد هزهم القضاء قبل أن يدركوا .

فكر عزرائيل قليلا ثم قال : وماذا تجني ؟!

- أبحث عمن قتل أبي ، وإلي الشيطان نسب مولدي .
- إن كان أبوك قد مات ، فإنك كنت تحيي ، وهكذا الحياة .
- كنت أحيا مقطوع الجذور ، ضنين البذور .
- تضع الكائنات ملايين البذور ولا ينبت منها إلا الآحاد .
- فإن أصابها العطب ؟

- تلك حكمة الله ، ولا عجب .
- وما لحكمة الله من تغيير ، ولكن لا بد لها من تفسير .
- إن كان ذلك ما تريد ، فلمدة محددة لا تنقص ولا تزيد .

وقبل أن أنطق بشيء حملني علي جناحيه ، وبينمـا كنـت أظنـه يصعد بي إلي السماء ، وجدت ظلمة الأرض تكتم الأنفاس ،رحت أقلب وأجرب ، أبحث وأتحسس ، غير أن الظلمة كابية ، والرؤية غير كافية ، فرحت أبحث عن الشمس ....

***

اتصلت الأرض بالسماء والسماء بـالأرض فانفتحـت الأبـواب وتحطمت السدود ، خفت الأجساد وانعدمت الأوزان ، غـادر النـاس النوم وهجرتهم السكينة وجافتهم الطمأنينة ، فلم يكن ما حدث ليمر كما تمر كل الأشياء ، الشواهد والرؤى والأحداث ، تؤكد كلها أن السـاعة قادمة لا محالة ، لزم الكثيرون المسـاجد ، أعـدت النسـوة الرحمـة لتوزيعها علي أرواح الراحلين ، كثرت زيارات القبـور ، ولـم تعـد مقصورة علي الخميس والجمعة ، راح البعض يُحدِّثُ مـن رحـل ، والبعض ينتظر المعجزة تأتيه بأحبته ، بينما أكد كبار السن أن ما حدث لم يكن سوي معجزة أرادها الله ليكشف بها ستر المخبوء ويحق الحـق ويزهق الباطل ، وأصر آخرون علي أن ما حدث لم يكن غيـر حلـم

أراده الناس فعاشوه ، مؤكدين أنه لم يعد هناك مســـافة بـــين الحلـــم والحقيقة فيما يعيشه الناس . بينما ردد الأستاذ عطيه أبو حطب مبتسما كما هو دائما أن الذهاب أسهل كثيراً من العودة ، فمن أراد رؤية أحـــد فعليه الذهاب إليه ، أم أن الناس استمرأت الجلوس ووضع اليـــد علـــي الخد في انتظار من يغسل لهم أيديهم ، إلا أن أحداً لم يكن بمقـــدوره نسيان ما كان أو التخلص منه ، كان الجرح قد تقيح من عدم التطهير جيداً ، منذ أن كانت ساعات النوم والسهاد والأرق قد طالت ، منذ أن فرض عليهم ما استوجب التزام الجميع بعدم مغادرة الدور بعد صـــلاة المغرب ، اتسعت مساحة الأحلام والرؤى والكـــوابيس فـــي حيـــاة الناس ، فأصبحوا يحلمون وهم نائمون ، ويحلمون وهم مستيقظون ، ويحلمون وهم واقفون ، ويحلمون وهم جالسون ، ويحلمـــون أنهـــم يحلمون ، ويحلمون وهم يحلمون ، واستهلك الشيخ محمـــود الحســـيني الكثير من الوقت في الحديث بعد صلاة الفجـــر لتفســـير مـــا يحكيـــه الحالمون .

خير اللهم اجعله خير ...

كنا صباح يوم جمعة، موعد زيارة النساء للقبور ، زحفت النساء إلي القبور جماعات ووحدانا ، افترشت كل واحدة الأرض أمام القبـــر الذي يخصها ، قرأت الفاتحة ووزعت ما معها من القرص والمنين ، ثم توجهن كالعادة إلي قبر أحدث من ماتوا ، وكان قبر المرحوم فكري

عبد العليم ، وأخذن في البكاء ، منهن من تبكي علي ميتها ، ومنهن من تبكي علي صاحب القبر ، وكثيرات كالعادة يتذكرن ما يبكيهن حتى تشترك في المناسبة ، وانهمكن في البكاء ، وطال الوقت بهن حتـــى فاضت الدموع ، فأصبحت أنهارا ، زحفت علي القبور وانحدرت إلي الترعة القبلية المجاورة للقبور حتى امتلأت عن أخره وفاضت علــي الجانبين والأسماك علي سطحها أشكالاً وأنواعاً تزحف علي الغيطان ، تتقافز كما القطط أو الكلاب ، وكما تعرفون ، لم يعد يوجد أبو قردان ، فراحت تمرح وتتقافز علي سطح الأرض وفوق الميـــاه ، وفجـــأة .. وبعد أن ارتوت الأرض والغيطان بالراحة ، ارتفعت المياه ، فاضـــت في الأرض وأغرقت الزرع ، زعق الرجال ونادي بعضهم بعضـــاً ، أسرع الجميع بالفؤوس والحمير جامعين ما لم تغرقه المياه بعـــد مـــن التراب والسباخ ، راحوا يصنعون الحواجز والسدود أمـــام الميـــاه الجارفة ، وبعد كثير من المعاناة انحسرت الميـــاه عـــن الغيطـــان ، ارتفعت حرارة الشمس وهبت الريح فجفت الأرض ســـريعا ، لكـــن الأسماك انزرعت في الأرض ، أنبتـــت ســـيقاناً ، أخـــذت تتصـــاعد وتتفرع ، بعضها كان يضيء كما القمر ليلة البدر ، وبعضها يتحـــول إلي ثعابين وحيات ، فتحت البنات أعبابهن ورحن يجمعنها كما يجمعن القطن ، يعبئنها في الزكائب المرصوصـــة علـــي رؤوس الغيطـــان ، وكان عمر يسوقهن كخولي الأنفار وهو يحتك ويتما حك فـــي فوزيـــة

بنت محروس الجَمّال ، فاندارت ولهفته قلماً علي وجهه ، احمر وجهه وازرق وأعطي كل ألوان الطيف ، سحبها مع بعض رجالـــه الـــذين التفوا حوله واختفوا بها في مكان لا يعلمه إلا الله ، راحـــت النســـوة يلطمن الخدود ويشققن الجيوب ، وأبوها محروس الجمال جالس علـــي باب داره منكسر الرأس ونبوية امرأته تطلب منه أن يفعل شيئا ، تهزه بعنف ممسكة رقبته ، فاستيقظت علي أم العيال تهزني وتوقظني .

فكر الشيخ محمود كثيراً وعبس قليلاً وهو يقول أن رؤية الأسماك الحية والثعابين والحيات في المنام شيء قد لا يجلب خيراً ولكن كـــان الواجب عليك عندما استيقظت أن تنظر إلي يسارك وتتفل ثلاثاً وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

وكانت الشمس قد علت كثيراً عن الأرض فطلب الشيخ محمـــود أن تؤجل باقي الأحلام إلي اليوم التالي حتـــى يـــذهب الجميـــع إلـــي مصالحهم .

***

استغرقت القاعة وقتا طال حتى ظنوه بالساعات فـــي صـــمت وعدم قدرة علي النطق قبل أن ينهض القاضي في تثاقل وهو يعلـــن أن الحُكمْ .. بعد المداولة .

استمرت فترة المداولة نحو الساعتين ، وانتهت إلي الحكم ببراءة السيد نافع من تهمة القتل الجماعي لأفراد المجموعة ، استنادا إلي شهادة القادم باعتباره شاهد صدق ، إذ لم يكن بمقدوره الشهادة بغير الصدق حيث لا منجاة له إن هو لم يفعل ذلك ، وأن تؤجل باقي القضايا المتعلقة بترويع أمن القرية والاستيلاء علي أموال الغير وتُحَوّل إلي محكمة العدل الإلهية ، لعدم كفاية الأدلة المقدمة من السيد شوقي عبد الحميد يحيي ، المدعي بالحق المدني ، وعليه تقديم المزيد منها ، ويدعها أمانة المحكمة المذكورة .

***

وجد السيد نافع نفسه مدفوعا لفتح طريق ضروري مع الشيخ أحمد يحيي والشيخ محمود حجازي الذي تولي إمامة المسجد بعد الشيخ محمود الحسيني ، ورغم أن الشيخ أحمد بعد ظهور المجموعة لم يكن هو الشيخ أحمد قبلها ، إلا أن السيد نافع وجد نفسه مدفوعاً نحوه ولديه رغبة في التقرب منه ، ليس فقط لأنه سيضمن الكثير من المدافعين ضد أتباع عبد الفتاح الذين صاروا له أعداء ، ولكن هناك دافع خفي يربطه بهم ، ربما كان الرابط النفسي والعاطفي الذي يربطه بهم منذ كان بكُتّاب القرية يحفظ القرآن الكريم ويحفزهم الشيخ محمد المتولي للحفاظ علي الصلاة بالمسجد ويلقنهم احترام الصغير

للكبير ، وربما لسبب خفي لم نستطع نحن الوصول إليه ، لكن ما لـم يكن يحتاج إلي توضيح أو تأويل ، هو أنه رأي القرية كلها تتخذ مـن الشيخ أحمد يحيي كبيراً لها ، فأراد أن يدخل البيوت من أبوابها .

في البداية .. رفض الشيخ أحمد مقابلة السيد نافع ، فلم يكن مـن السهل عليه تناسي ما كان ، وما كان له أن يطمئن إلي التعامـل معـه بتلك البساطة بعد طول ما عاني والقرية من المجموعة ، غير أن السيد نافع لم يكن يعرف المستحيل ، ولم يُعرف عنه أنـه يتعامـل مـع الأشياء بالطرق الانفعالية ، فلم يتسرب اليأس إلي نفسه ، ولم يفقـد الأمل ، مدفوعاً بقناعة داخلية وبحب موروث كان يطفو علي السـطح من حين لآخر ، ظل يتردد عليه ويلح في مقابلته حتى نجـح أخيـرا وكان له ما أراد ، ورغم أن كل أبواب الشيخ أحمد كانت موصدة فـي وجه السيد نافع إلا أن قدرته علي كسب الآخرين مكنته من كسب ثقـة الشيخ أحمد بوعد بتصحيح كل ما كان من أخطاء ، ليس تجاهه وحده ، وإنما تجاه القرية كلها ، فما كان للشيخ أحمد ، وما عُرف عنه بحثـه عن نفسه ، بقدر ما كان يبحث عما يخص الآخرين قبل ذلـك ، فمـا كان لأحد أن ينكر أنه .. والد القرية الحنون .

***

تعددت جلسات السيد نافع والشيخ أحمد يحيي في المندرة الداخلية ، وتعددت اتجاهات الحديث ، ولم يغب عن فطنة الشيخ أحمد ما كـــان يلمح إليه السيد بين الحين والآخر . يدور بالحديث كما النحلة التي تطن كثيرا ، ثم يعود فينقض علي الحديث عن كيفية استرجاع حقـــه مـــن بين أنياب أتباع عبد الفتاح ، تردد الشيخ أحمد كثيرا في الخوض في الموضوع ، غير أن قدرة السيد علي المراوغة والإقناع قادت الشـــيخ أحمد إلي الحديث ، عارض في البداية أن يكون هذا من حق الســـيد أو من حق عبد الفتاح أو أي من أفراد المجموعة ، كل ما حصلوا عليـــه ملكا لأهل القرية ، ولم يشأ أن يحدد أسماء بعينها ، أكد له السيد نـــافع أنه يعلم ذلك جيداً وأنه لا ينوي أن يحتفظ بشيء لنفسه إلا مـــا يكفـــي ناريمان الصغيرة فقط ، ولكن لو استطاع استرداد ما هو حقـــه مـــن ممتلكات المجموعة ، سيكون بداية لاسترداد باقي حقوق الآخـــرين ، فعاجله الشيخ أحمد :

حتى لو استطعت رد الأرض والممتلكات ، فكيف تستطيع رد مـــا ضاع من أشياء أخري ؟ فرد السيد في تؤدة وكأنه يختار الكلمات قبـــل أن ينطقها : لا تصعبْ عليَّ الأمور يا شيخ أحمد ، فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ثم إنني أفكر وأنوي بإذن الله ، أن أقـــيم علـــي الأرض المستردة مزرعة ....

اندفع الشيخ أحمد في غضب احمر له وجهه ونفــرت عروقــه ، فاختفي من وجهه اللون الصعيدي وبدا كما لو كان من أصل إنجليزي :
مزرعة مرة أخري ؟!

- لا يا شيخ أحمد ليست المزرعة التي أعنيها مثل تلك التي كان عبد الفتاح يود أن يبنيها ، أريد أن تكون مزرعة للزراعــة . اعتدنا علي امتداد عمرنا علي الزراعات التقليدية ، ما أريــده أن نزرع أشياء أخري إلي جانبها ، موالح مثلا ، خضراوات . عائد هذه الزراعات كبير ، وليس لنا وحدنا ، إنما ســيكون لدينا الفرصة للتوريد إلي كل المدن القريبة منا ، بل ربما فـــي يوم نستطيع التوريد حتى إلي الإسكندرية ، ولا تنسي أن ذلك سيتيح الفرصة لأبناء القرية للعمل فيها ، أن يستقروا فيها ولا يحاولون الهروب إلي الوظائف الحكومية التي لم تعــد تــدر عليهم ما يعيشون به الحياة الكريمة ، صدقني يا شيخ أحمد ، حياتهم هنا وعملهم هنا سيكون أكرم وأكثر فائدة لهم من عمل البندر وعيشة البندر ، أرضنا يا شيخ أحمــد أصــلح أرض تجود بالزرع ولا يجب أن تكون لغير الزرع ، فقط لو أننـــا خدمناها فسوف تخدمنا كثيراً وتغني القرية ويفيض ، هذا مـــا أردته بالمزرعة يا شيخ أحمد .

انفرجت أسارير الشيخ أحمد وغمره شعور بالزهو الداخلي ، كـأن حقا عاد إليه وبدا عليه الاقتناع ، بل شعر كأنه يستمع إلي صوت أم كلثوم المحبب إليه ، فما كان أحب إليه من الزراعة والأرض والخير العائد منها ليفيض علي الجميع ، إلا أنه تحفظ أن يكون له دور ، فـإلي جانب أن حاجزا ما كان لا يزال بينه وبين السيد باعتباره واحـدا مـن أفراد المجموعة ، فإنه لم يكن يحب أن يكون طرفا في معارك تنشأ بين السيد وأتباع عبد الفتاح ، فما كان له أن يكون طرفاً في نزاعـات تنشأ بين أفراد (عصابة) - كما كان يصر علي تسمية المجموعة - ويكفي ما كان قد بدأ يدور بين الناس عن لقاءاته بالسيد واجتماعاتهمـا ، فقد اختلفت الآراء من جديد ، بين مؤيد متفهم وبين رافض مستنكر ، إذ كيف يتعاون الشيخ أحمد يحيي مع أحد رجال المجموعة ، وتنـاثرت التساؤلات و الهمهمات حتى وصلت الشيخ أحمد الذي كانت الابتسـامة قد بدأت تعود إلي وجهه وبدأ استرجاع القدرة علي الكلام .

تعددت الحوارات بينهما ، حتى استطاع السيد نافع أن يصـطحبه إلي المسجد من جديد ، خاصة صلاة العشاء ، بعد أن كان الناس قـد بدأوا في تأديتها من جديد بالمسجد ، وامتدت السهرات بعد الصلاة فـي مدارسة أمر القرية وكيفية إعادة الأمور إلي وضعها الطبيعي ، ممـا كان له كبير الأثر في ارتفاع معنويات الشيخ أحمـد ، حيـث شـعر بوجوده من جديد ، وأنه قد عاد عمدة البلدة مرة أخري ، وأن شيئا في

القرية لا يتم إلا بمشورته ، ورغم ما كان يتخلل ذلك من الحديث عما يمكن أن تسفر عنه المحاكمات المنتظرة للسيد وبعض من لا يزالـون علي قيد الحياة من المجموعة أو من تعاون معهم من أبنـاء القريـة .
انخرط السيد نافع في صفوف المصلين بالمسجد وأكثر من النوافل بـين تصديق البعض لصدق النية وأن التوبة تطهير للنفوس ، وبـين مـتهم بالقدرة علي التمثيل التي استطاع بها معايشة المجموعـة حتـى كـان أكثرهم استمراراً بها مع عبد الفتاح الذي لم يغب عن الجميـع أمـر خلافه مع كل أفراد المجموعة – وإن اختلفت درجات الاخـتلاف – حتى أقرب أصدقائه منهم ، خاصة أن السيد أصبح تقريبا لا يغادر تلك السراية التي استولت عليها المجموعة من أملاك عاصم بيه والتي كانت قد تحولت في يوم من الأيام إلي مقر لعمر ورجاله – إلا أن الشـيخ أحمد لم يلتق به مرة واحدة فيها – فرأي الكثيرون في ذلك تناقضـا يؤكد لهم ألا تغيير حدث ، وإن هو إلا واحد من المجموعة التي تغيـر أفرادها ولم تتغير أهدافها ، الأمر الذي دعا الشيخ أحمد للمراجعة مـع النفس والتردد حين دعاه السيد نافع إلي تلك السراية ، وقد أصبح السيد لا يقدم علي عمل دون مشورة الشيخ أحمد .

تصدي للشيخ أحمد ابنه لبيب ، شاخصاً ، ومانعاً من إتمام تلـك الزيارة أو ذلك التعاون ، إذ كيف يجرؤ هذا السيد أن يطلب من الشـيخ أحمد مثل هذا الطلب ؟ أن يذهب هو إليه ، وفي السراية التي حملت

من صنوف البشر النقيض والنقيض ؟ ! حتى وإن كان يسعى لإعادة الأمور إلي وضعها ، أو إلي أعمال عامة جديدة ، فما هو النهاية إلا واحدا من أفراد المجموعة التي كانت السبب في زوال زمانه ، حتى وإن زال زمانه فلا أحد يستطيع أن يُنكر أنه هو الشيخ أحمد يحيي ، علا الدم في وجهه وعادت حمرته تطفوا معلنة عن فورة كان قد نسيها ، انتابه شعور متضارب متداخل بأن ثقلا قد عاد إلي لسانه وغصة في حلقه ، حاول طرد تلك الأيام التي لا يحب استعادتها ، غير أن الدنيا كانت قد أطفأت أنوارها وبدأ العرض .

***

انبسطت أمام عينيك يا شيخ أحمد تلك الأيام التي عجزتَ فيها عن الكلام وانتشر العجز في أنحاء القرية ، يوم استغلت المجموعة الحالة التي أصبحت عليها القرية من الصمت والعجز ، زاد نشاطها كثيرا فلم تعد تمر ليلة إلا ويكون لهم فيها عملية ، اضطر عاصم بيه إلي مغادرة القرية هرباً ، عارضا الكثير من أرضه للبيع والتي لم تكن وحدها من نصيب أفراد المجموعة ، من كان يتصور حصولهم علي السراية بسعر لم يكن أحد يتخيله حتى هم أنفسهم ، لو أن واحدا منهم تصور أنه يمكن أن يقيم في هذه السراية لظن الآخرون به مساً من الشيطان ، من كان يتصور القرية بدون ممثلها - عاصم بيه - في

البرلمان ؟ ويحل محله واحد من هؤلاء بعد ما حله عبد الناصر ليصل إلي ما كان يسعى إليه ، أن تخرج الجماهير تهتف بحياته ، وكم كــان ذلك يصيبه بالنشوة والزهو ، وعدهم بأن يكون نصف البرلمان علــي الأقل منهم ، ولم يكونوا يمثلون الدائرة بقدر ما كانوا يمثلون أنفسهم ، لم يكن صاحب السراية ليفعل ما فعلوه ، و ما فعلوه بالرجال ، أمــره يهون ، ولكن أن يطال النساء والبنات ، هذا ما لم يكن بمقــدور أحــد تحمله ، لقد أصبح يُخشى عليهن من الخروج حتى في وضح النهار ، أليس هذا من علامات الساعة ؟ أن تتحول السراية مقرا لهم و علــي بعد أمتار من نقطة الشرطة الجديدة ووكرا لشرب المخدرات وخاصة الأفيون ؟ ألم يكونوا هم الذين يوردونه وأفسدوا به الكثيرين من شــباب القرية ؟ ألم تكن تلك هي التجارة التي جعلت من هذا أل سامبُو شخصا يُشار إليه ؟! .

***

التحق سامبُو بالعمل لدي عاصم بيه ، وفي وقت قصير كان قــد أظهر من المرونة والخفة والنشاط ما استطاع به اكتساب ثقة عاصــم بيه ، فأصبح ساعده الأيمن وما يمكن بــه أن يكــون نــاظر العزبــة والمهيمن علي شئون الزراعة والفلاحة والأنفار فيها ، ولما كان قد حل موعد الانتخابات البرلمانية ، جعل منه عاصم بيه المسئول عن الدعاية

الانتخابية في كل نواحي الدائرة ، المعروف الاسم لدي كل أبنائهـا ، ولم يكن أبو الهول يتخلف عن الظهور له بين الحين والآخـر ، لكـن سامبُو كان هو الوحيد - دوناً عن كل أهل القرية - الذي يضـرب أبو الهول علي قفاه ، فيجري أبو الهول وهو يدعك قفاه لاعناً سـامبُو (واللي مشغلينه) ، حتى أصبح وداً مفقوداً بين الاثنين لا يعلم سـببه إلا الله . وحينها كانت أعمال الجماعة قد بدأت تنتشر وتُعرف ويصبح لها سطوتها في الزمام إلا أن خبراً تسرب إلي عاصم بيه بأن سـامبُو علي اتصال بها .

استنكر عاصم بيه ذلك في البداية ورفض تصـديقه حتـى كانـت سرقة حظيرة المواشي وتشتت فكر عاصم بيه ، أيكون ما تـردد ومـا سمعه صحيحاً ويكون سامبُو علي علاقة بالمجموعة ، وله صـلة بمـا حدث ، أم تراها افتراءات وادعاء علي الرجل الذي أخلص له ويريـد الحاقدون الوقيعة بينهما ؟ ولكن عاصم بيه عُرف بالحزم ، ولم يكـن من أنصار الاستسلام للظنون كثيرا فقرر ضرورة المكاشفة و المواجهة ، لم يُنْكِر سامبُو الخبر ولم يؤكده ، غير أنه أكد لعاصم بيـه سـعيه لإعادة المسروقات التي كانت تقدر بما يزيد عن الألف جنيه . وبهذه الإجابة استطاع عاصم بيه أن يتأكد من وجود العلاقة بين هذا السامبّو والمجموعة بل والعلاقة كبيرة ، لم يأسف عاصم بيه مثلما أسف علي التسليم لهذا الألعبان الكبير الذي استطاع أن يخدعه طوال هذه الفترة ،

وثار في نفسه اللوم علي صديقه الشيخ أحمد يحيي الذي كان قد علم بما فعله سامبّو معه وكيف أنه لم ينبهه إلي طموحه غير المحدود ونظرته التي تتجاوز طاقته وحدوده ، فكر في إبلاغ الشرطة عنه لكنه تـدارك الأمر ، إذ بما ذا يستطيع اتهامه ؟ وما الدليل الذي يمكـن أن يقدمـه للشرطة ؟ فاكتفي بطرده من العزبة كلها ، لكن تـرك العمـل لـدي عاصم بيه لم يكن بالشيء الكثير في نظر سامبّو الذي لم يعد في حاجة إليه ، حيث كان قد افتتح محلاً لبيع المبيدات الحشرية وأعلاف الدواجن وبعض أدوية الحيوانات ، كان قد جهزه منذ فترة وكأنه كـان يتوقـع حدوث ما حدث في يوم من الأيام ، وهـا قـد جـاء الأوان ، إلا أن الجميع كان يعلم التجارة الحقيقية التي يتاجر فيها مع الكثيرين من أفراد المجموعة والتي راجت كثيراً في القرية والقرى المجاورة وهي تجارة الأفيون ، والذي أصبح الموزع الأول له ، ليس في القرية فحسب ، بل في كل القرى المجاورة تقريباً ، والذي أصبح الزاد اليومي للكثيـرين من أهل القرية بعدما صاروا يلزمون دُورَهم من بعد صلاة المغرب ، فكان الدواء الثنائي الفائدة ، فهو المعين علي الأحلام الوردية في ليـل القرية الطويل ، وهو المساعد علي إحياء ما مات وكـاد ينـدثر مـن رجولة غاربة أمام إلحاح الليل ومتطلباته ، فكانـت تجـارة مضـمونة السوق مأمولة العواقب بعدما أصبح صديقاً وزائراً يومياً لنقطة البوليس ، يقضي فيها شطراً من الليل ، وطرفاً من نهار ، فسـاعدت – إلـي

جانب لزدهار البضاعة الظاهرية من مبيدات وأعلاف وأسمدة ، خاصة بعد أن أصاب الأرض الإعياء ، وعدم كفاية ما يصـــلها مـــن طمـــي وسباخ طبيعي – فكانت كلها عوامل ساعدت في انتقال ســـامبّو مـــن درجة إلي درجة أعلي في وقت ليس بالكبير ، الأمر الذي حفزه – ولا شك – ورفع التردد من طريقه ، فكانت استجابته لـــدعوة الـــزعيم للمشاركة ، فما أن أعلن عبد الناصر عن ضـــرورة تمثيـــل العمـــال والفلاحين في المجلس النيابي بالنصف علي الأقل ، حتى تقدم سامبُو بترشيح نفسه مدعوماً ومؤيداً من المجموعة التي اســـتطاعت بأموالهـــا ونفوذها لدي البوليس المشرف علي الانتخابات أن تجعل مـــن ســـامبُو عضواً في البرلمان ، بفوز ساحق لفت أنظار المسئولين الذين وجـــدوا فيه عنصراً مهماً ، فلم يمض وقت طويل حتـــى كـــان ســـامبّو أحـــد الأعضاء المهمين في الاتحاد الاشتراكي ، فأصبحت المجموعـــة التـــي كان لها الفضل الكبير في إنجاحه وتوصيله ، تعتبره لها سنداً وحمايـــة ، وأصبح هو بهم قوة وعزوة .

***

حكي الشيخ بدر الباجوري كبير معمري القريـــة – وقـــد لقـــب بالشيخ للشيخوخة وليس للمشيخة والذي بلغ من العمر مائة وعشرين عاما دون أن يصيب عقله أي عطب – قال : –

لم يكن الشيخ أحمد يحيى من أصـــحاب الإقطاعيـــات المترامية الأطراف - كما يقولون - إلا أنه أيضا لم يكـــن مـــن المعـــدمين ، بحيث يمكن القول أنه من الميسورين ، لم تســـطو المجموعـــة علـــي إحدى زرائبه أو أحد محاصيله طوال فترة عربدتها في القرية ، وعلي الرغم من ذلك كان أشد المتضررين من وجودها ، ومن عربـــدتها . حيث ورث العمودية علي قرية اسطنها - قبل أن يقـــام بهـــا نقطـــة الشرطة ، بعد أن بدأت أعمال المجموعة في القرية وبدأ نشاطها يتسع - ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره ، بعد وفاة والـــده الشـــيخ حسن يحيى ،وقد اتسعت وانتشرت السيرة الطيبة التي يتحاكي بها كل أهل القرية أباً عن جد ، و الذي يحكون عنه - من بين ما يحكون - أنه كان يتلصص علي أهل القرية في ظلام طرقاتهـــا الـــدامس ليتفقـــد أحوالهم ، ومتتبعاً خطي ابن الخطّاب ، يوما وصلته إخباريـــة عـــن العجمي الذي يسهر كـــل ليلـــة عنـــد مطلقتـــه يشـــرب المخـــدرات (كان الحشيش هو السائد في هذه الفترة ، ولم يكن الأفيـــون منتشـــراً مثلما هو الآن) ، ولكي يضبطه متلبساً قفز من سطوح البيت المجاور وسقط عليهم في جلستهم وانهال عليه بخيزرانته الشهيرة ، والتي لـــم تكن تفارقه ، حتى أدمي كل جسده سائلا إياه لمـــاذا طلقتهـــا إذن ؟! وأجبره علي إعادتها إلي عصمته ، ومن بعدها تاب عن المخدرات بعد أن تحاكت القرية عن (العلقة الساخنة) .

إضافة إلي ذلك ، تمتع الشيخ أحمد بالهيبة الخاصة التي وهبه الله إياها والمستمدة من الطول الفارع ، دون نحافة ، والوجه التركي المائل للاحمرار - وكأنه نبت غريب وسط قري الصعيد لا هذه القرية فقط - والعمامة التي لم يخلعها رغم تركه المعاهد الأزهرية دون أن يتم دراسته بها . ورث الشيخ أحمد كل تلك الصفات عن والده وزاد عليها دماثة الخلق ومعاملة الجميع بنفس الروح الودودة ، فقيرهم قبل غنيهم ، صغيرهم قبل كبيرهم ، فأصبح متربعا في قلب الجميع ، حتى أن يوم حصاد القمح كنت تري الجميع يتسابق للاشتراك ، ويوم دراوته يوم عيد علي القرية وتري الجرن ملئ بالمنتظرين لأخذ نصيبهم مما أفاء الله به عليه - كما كان يحب دائما أن يردد - وهو يسوى بنفسه كومة القمح ويسوى حيطانها ويكتب اسم الله عليها ، يبدأ الكيل باسم الله الواحد ، ويثني ، مالوش تاني ، ويثلث ، يا بركة التلاتة ، الخلفاء أربعة ، حبابك خمسة ، وهكذا تجد كل رقم له عنده قرين ، ويبدأ التوزيع علي المنتظرين قبل أن يوضع نصيب الدُّوار والأولاد في الزكائب للتخزين ، وكان يتحايل علي ذلك بتقدير قيمة المحصول ويحدد علي أساس ذلك التقدير الكمية الواجب توزيعها ، فإذا ما جاءت كمية المحصول أقل من الكمية المقدرة وبالتالي تكون الكمية الواجب توزيعها أقل من الكمية الموزعة فعلا ، عفا الله عما كان وهو رزقهم ، أما إذا كانت كمية المحصول أكبر من الكمية المقدرة وبالتالي

تكون الكمية المطلوب توزيعها أكبر ، استكمل عملية التوزيع للكميـة المتبقية ، ولم يكن أبو الهول ليتخلف عن ذلك اليوم الذي يعتبره مولـد وصاحبه حاضر ، يجلس من ساعة وصول الشيخ أحمد إلي الجرن إلي أن تنتهي عملية التوزيع حتى نهايتها ، وعلي الرغم من معرفة الشـيخ أحمد من أنه في كل عام يرفض أخذ القمح ، إلا أنه لا بد أن يعـرض عليه نصيبه فيرد (أنا مش عايز غلة أنا عايز قرش) فيمنحه بدلاً من القرش ، خمسة قروش . ولم يكن الشيخ أحمد ينتظر المناسـبة حتـى يولم لأهل القرية ، بل كان يخلقها لتذبح الذبائح وتقام الموائد للقاصـي قبل الداني ، فهذا مولد أبو العباس ، وهذا نجاح أحد الأولاد وحصـوله علي الابتدائية وتهيؤه لدخول المدارس الثانوية ، وكم كان يسعده ذلك دائما ويستبشر به . أما الشّب الذي أطلقه علي بقر البلدة جميعهـا - تقريباً - فقد نبّهَ وحذر ابنه كمال ألا يتقاضـى أي مقابـل لـذلك وجعله زكاة عن صحة البقر والمواشي جميعها رغم اعتـراض كمـال علي ذلك ورغم كونه الشَبْ الوحيد بالقرية تقريباً ، حتى بقر عاصـم بيه كانت تنال نصيبها منه ، كما أن عاصـم بيـــه ذاتـه كـان (يستبارك) بحمل أبقاره من شب الشيخ أحمد .

***

علي الرغم من أن سامبّو كان الموزع الأول للأفيون المورّد مـن أفراد المجموعة، إلا أنه لم يكن المشروب المفضل لهم حيـث كانـت السهرة تدور أساساً علي (الجوزة) فما كانت تكتمل الشلة في سراية عاصم بيه (سابقاً) ، عمر و صلاح و سامبّو و الرائد عبد الحكيم ضابط النقطة و الدكتور ثروت طبيب الوحدة الصـحية و الأمباشـي سليمان الذي كان يتولى عملية التحضير والرص ، بينما يقف للحراسة بالخارج مجموعة من الخفر ، بأمر الرائد عبد الحكـيم ، ولـم تكـن السهرة تبدأ في كل ليلة قبل العاشرة أو الحادية عشر ، وهـو الوقـت الذي يعتبره أهل القرية منتصف الليل ، وقد يكون البعض منهم قد بـدأ الاستعداد لصلاة الفجر ، وهو الوقت أيضا الذي تبـدأ فيـه عمليـات المجموعة تقريباً ، غير أن هناك آخرين يتولون الأعمـال ، وبـالطبع لكل دوره ، وما كان علي هذه المجموعة سوي توزيع مهمات العمـل للعملية التي يكون عبد الفتاح هو الذي حددها مسبقاً ، وقد تطـول السهرة أو تقصر حسب الأحوال ، غير أن الذي يتكرر ويكون المـادة المعادة ، بعد (غموس) الجوزة بالطبع ، هو التعليقات التي غالباً مـا يبدأها عمر والذي يكون أول من يصل إلي الحالة المزاجية التي تجعله دائماً يلعن الصنف (واللي جايبينه) ، حيث لم يصل الصنف بعد الذي يجعله يثني عليه ولو مرة واحدة ، وبالرغم من ذلك يكـون أول مـن

يصل ، ويتكرر الحوار اليومي مع تغيير غير كثير في مضمونه وشكله :

عمر : بودي لو أعرف أي حمار أتي بهذا الصنف المغشوش ؟

الرائد عبد الحكيم : من يحضره كل مرة .

عمر : ألا زال حمارا كما هو ؟

سامبو : وما الذي يغيره ؟ أيمكن أن يصبح الحمار في يوم ليجد نفسه وقد أصبح غزالاً ؟!

د . ثروت : أعتقد أنه ممكن ، يكفي أن تنظر في المرآة .

سامبو : لكن مرآة الحب عمياء .

صلاح : بل مرآة الكره أكثر عماءً .

عمر : ومن جاء بسيرة الكره الآن ؟ كفانا الله شر الكره والكارهين

الرائد عبد الحكيم : والظلم والظالمين .

سامبو : والحقد والحاقدين .

د.ثروت : الأحياء منهم والميتين .

الرائد عبد الحكيم : وربنا يأخذهم أجمعين ، قولوا آمين .

الجميع : آميييين .

عمر : – ويبدو أن الصنف قد بدأ مفعوله – وشكر الله سعيكم أجمعين .

صلاح : هيييه الموت نهاية كل حي .

د. ثروت : أتعرفون لماذا يخاف الناس الموت ؟

عمر : لماذا يا حكيم الزمان ؟

ساميّو : لأن الآخرة لا يوجد بها الصنف ؟

د. ثروت : بالعكس فيها أحلي صنف ، حينها سنكون نحن السكارى .

لرائد عبد الحكيم – يدندن : هل رأي الحب سكارى .. سكارى !!!!!!! مثلنا .

د. ثروت : الموضوع ليس تهريجاً كما تأخذونه ، الموضوع موضوع .....

سامبّو : – مقاطعاً – الموضوع موضوع شعب قام وثار ، شعب قام يولعها نار ، تصهلل الجوزة ويطرد الاستعمار ، يطيِّر الدخان بلاقيه جوه قلب الدار – يخرج منديلا ويلوح به علي طريقة الغناء الشامي ويبدأ في الرقص وهو جالس في مكانه – واشرح لها .. عن حالتي .. روحي عليلة لأجلها ، هاها ، هاها .

صلاح : سامبّو وصل وبدأ يُشعِر .

عمر : يريد أن يقلد الجماعة الكتبة ، الواحد منهم لا يعرف الكتابة إلا إذا اتسطل .

د. ثروت : تقصد الكُتاب .

عمر : أتريد أن تظهر لنا أنك مثقف ، الكتاب ، الكتبة ، ما الفرق ، تشكيل الحروف ؟ علي فكرة ، نحن أيضاً نعرف القراءة ، وليس أنت المثقف الوحيد .

د. ثروت : الكتاب يؤلفون من دماغهم ، أما الكتبه فيكتبون ما يملي عليهم .

عمر : إذن كما قلت أنا ، كلهم كتبه !!! .

الأمباشي سليمان – وأخيراً يتدخل في الحديث وكأن الرهبة قد زالت عنه – يا سلام علي الدكتور ثروت لما يتفلسف ، بيخرج الكلام من بقه دُرر ، دُرر .

صلاح : دُرر ، دّرر ، ولا ضَرر ضَرر يعني بالضم ولا بالفتح ؟

سليمان : خلينا في الضم أفضل ، ربما لو ذكرنا الفتح نجد الفتح داخل علينا ويضرب عصاية في الكُلب ويقلبها ضلمة .

الرائد عبد الحكيم – موجها حديثه إلي عمر – يا تري إيـه آخـر أخبار صاحبك ؟ سمعت أن العلاقة حالياً مش ولا بد ؟

عمر – وقد أخذ نفسا عميقاً خرج علي أثره الدخان سحابة غطـت وجوه الجالسين – أبداً الحكاية ببساطة، إن كل واحد عايز ياكل الثاني ، بس الخلاف علي من يتغدا بمن ، ومن يتعشى بمن ؟

سامبّو : أكلك منين يا بطة أكلك منين

صلاح : بس علي فكرة لو احتكم الأمر ...

سامبّو : تلاقي عبد الرحيم عمرو .

صلاح – مكملا ما بدأه من حديث – : فإن العـدد الأكبـر مـن المجموعة معك .

الرائد عبد الحكيم : يكفي أنا ورجالي معك ، ما عليك إلا الإشارة .

سامبّو : شاور تلاقي ، تلاتين مليون فدائي .

عمر : أنا فقط أبقي علي العيش والملح ، لكنه لو فكر في الخيانة ، سوف لا يهمني شيء في الدنيا .

سامبّو : ولا يهمك يا ريس ، من الأمريكان يا ريس .

سليمان : ولكن لو أن هذا حدث ، أترانا نستطيع

تكرار قعدة المزاج هذه ؟

عمر : الحقيقة أنه لو أني أريد الرئاسة ، لكنت قلبته من زمن ، فقط أنا هكذا مرتاح وعايش حياتي ، يكفيني جلسة كهذه ، الدنيا وما فيها .

د. ثروت : طح به أنت ودع الباقي عليّ ، يمكن أن أتولى أنا المجموعة ، وحينها يمكن أن تري ما سيحدث .

الرائد عبد الحكيم : ولكنك لا تصلح .

د. ثروت : لماذا إن شاء الله ؟ أناقص يد أم ناقص ذراع ؟

الرائد عبد الحكيم : القيادة يلزمها عسكري مثلي ، هو الذي يستطيع قيادة المجموعة بيد من حديد .

د. ثروت : كفانا حكم العسكر ، جربنا حُكم العسكر ، ماذا كان عبد الناصر وشلته ، ألم يكونوا عساكر ؟ نجرب حكم الدكاترة ..

سامبّو : بالمشرط يا ريس .

صلاح : ألم نكرر مائة مرة قبل الآن ما لنا والسياسة ، خلينا هنا في حالنا .

عمر : العملية فعلا لازم لها يد جامدة ، لأنه ليس قيادة المجموعة فقط ، ولكن كيف تُسَيِّر بلداً بأكمله .

صلاح : ولكن إذا كنا جربنا اليد الحديدية ، لماذا لا نجرب الديمقراطية .

سامبّو : إيه يا عم الكلام الكبير ده ؟

صلاح : إذن ما رأيكم في عمل انتخابات ، ولنري الأغلبية مع من ؟

سامبّو : وتبقي انتخابات مساطيل .

الرائد عبد الحكيم : أنا موافق وأرشح نفسي ، من يرشح نفسه أمامي ؟

د. ثروت : أنا .

الرائد عبد الحكيم : ومن ؟

سامبّو : يكفي اثنان أهي انتخابات الأمم المتحدة ، المفروض أنها استفتاء علي واحد فقط ، ونقول يا آه يا لأ .

سامبّو : طبعا آه يا ريس ، آه يا قلبي يا كتاكت ، يا منت شايف وساكت .

صلاح : وتكون انتخابات علنية بالتصويت .

سامبّو : قصدك بالصويت .

د. ثروت : الأفضل طبعاً أن تكون سرية .

الرائد عبد الحكيم : موافق ، سرية سرية – موجها حديثه إلي الأمباشي سليمان – جهز ورق بعدد الحاضرين .

سامبّو : الحاضرين والغائبين ، العائشين والميتين.

الأمباشي سليمان : بشرط أن أتولي أنا عملية الفرز .

سامبّو : أنت ملك الفرز والرص ، ومن لنا أفضل منك للفرز .

الرائد عبد الحكيم : وأنا موافق .

د. ثروت : وأنا موافق .

ينتحي الأمباشي سليمان جانباً ويأخذ في إعـداد الـورق لعمليـة التصويت حتى تشاغل الجميع عنه وتولي سامبّو عملية إعداد الجوزة ، واشتعلت النيران عليه وتصاعد الدخان حتى غطي جو الحجرة فلم يعد أحد يري أحداً .

تكاثفت سحابة الدخان حول رأس عمر ، حملته بعيـداً فلـم يعـد يري ، و لم يعد يسمع ، لا زال الحلم يؤرقه ويقلق مضجعه ، لا زالت زوجته تهب مفزوعة من نومها لتلحق به قبل أن يستيقظ الأولاد ، لـم

تعد تفلح محاولاتها معرفة ما يؤرقه ويقلق نومه ، حاولت كثيراً حتـــى يئست ، فلم تعد تحاول ، دائما هو كتاب مغلق عليها ، لم يعد يشـــركها في أي شيء يخصه ، ودائما تسمع نفس الإجابة ، أينقصـــك شـــيء ؟ ودائما لا تجد ما تجيب به ، كيف تعبر له عما ينقصـــها ، أتقـــول لـــه ينقصني زوج ؟ لا بد أنه سيجيب وماذا أكون ، زوج حمام ؟ انقطـــع حبل الوصال الذي جمع بينهما في يوم من الأيام ، ما من مرة رآه فيها إلا ويقذفه من مكان ما ، أو يقذفه في حفرة ما لها من قرار ، يود لـــو مرة يقذفه هو في نفس الحفرة ، لكن ذلك لا يحدث أبداً ، وكلما استيقظ ، لا يغادره شيء مما رآه ، عندما سأله مرة أين كنت بـــالأمس ؟ لقـــد بحثت عنك كثيراً ، ألم يكن من الواجب أن تترك مكان ذهابـــك علّـــيّ أجدك إن احتجت إليك ، أجابه : لقد كنت في الحفرة التـــي قـــذفتني فيها ، اندهش وتساءل : أي حفرة تقصد ؟ فتدارك الأمر واستطرد ، لا تأخذ ببالك ، لقد كنت مؤرقاً بالأمس ولم آخذ كفايتي من النـــوم ، فـــرد عبد الفتاح : ألم أحدثك طويلاً عن ضـــرورة تـــرك تلـــك الســـهرات والتركيز في عملنا ؟ أليس وراءنا ما هو أهم من ذلك ؟ فرد عليه : من يدري ماذا سيحدث في الغد ، أحييني اليوم وأمتني غداً ، أيعـــرف أحدنا لمن سيكون الغد ؟

انتفض الأمباشي سليمان واقفاً وسط المجموعة رافعاً كلتا يديه كمن وصل لحل المعضلة صائحاً : سمع هص ، الكل ينصت لي ويفتح

أننيه جيداً ، الآن دقت ساعة العمل الجاد ، سأقوم الآن بتوزيـــع هـــذه الوريقات علي كل فرد منكم ، وعلي كل واحد أن يكتب اسم من يريده في الورقة ، ثم يطبقها أربع ثنيات ويضعها فـــي هـــذا الصـــندوق ، وأشار إلي صندوق أحذية بيده الأخرى ، فقاطعه سامبّو قائلاً : هـــو نمرة كام أولاً ، لربما لا يكون علي مقاسي ؟

واندفع الأمباشي سليمان يوزع الأوراق علي الحاضرين.....

أتراه فعلاً يريد القذف بي بعيداً عن طريقه ؟ ولكن لماذا وأنا أتركـــه يفعل ما يبدو له ، لكنه بالفعل بدأ يســـتميل الســـيد نـــافع إلـــي جانبـــه ويستشيره في كل شيء . فلماذا الآن وأنا أعرف ما يريد وآخذه علـــي هواه ؟ بالتأكيد هو يعلم أن الغالبية معي ، لذا فهو لا يستطيع فعـــل شيء معي . ناوله سليمان الورقة البيضـــاء ، تفحصـــها قلـــيلاً وتناول نفساً عميقاً تصاعد الدخان علي أثره حتى حجب عنه الرؤيـــة ، خط اسم الرائد عبد الحكيم ، وضع الورقة في الصندوق دون كـــلام ، علي العموم ، هو لا يستطيع فعل شيء بدوني ، ويوم يفكر في الغدر ، فسيكون له رجالي من قبلي بالمرصاد ، اسمع يا عبد الفتاح ، أتحب اللعب علي المكشوف ؟

- ليس هناك أفضل منه .
- إذن أنا أعلم ما تريد ، وأنت تعلم ما أريد ، فليدع كـــل منـــا الآخر في حاله .

- وأعتقد ألا تعارض فيما بيننا .
- بالعكس كل منا يكمل الآخر .

استكمل الأمباشي سليمان تجميع الأوراق وانتحي جانباً ، وأخـذ يتظاهر بفض الأوراق ، بينما اهتم البعض بالمتابعـة ، راح الـبعض الآخر يعد دورة جديدة من دورات الجوزة ، لكن الجميع انتبه عنـدما علا صوت الأمباشي وهو يقرأ الورقة الأولي ويعلن اسم عبد الفتـاح ، ترك الجميع ما بأيديهم عندما بدأ في قراءة الورقة الثانية ويعلن اسـم عبد الفتاح ، الثالثة عبد الفتاح ، انفجر عمر صـائحاً ، أنـت عملـت الورق ده وأنت سكران يا ابن القحبة ، انفجر الجميـع فـي ضـحكات هستيرية ، الورقة الرابعة عبد الفتاح ، الخامسة عبد الفتاح ، السادسـة ..... عبد الحكيم ، صاح سامبّو وهو لا يتمالك نفسه من الضحك :

وحكمتها ليه يا أمباشي ، ما كانت مفتحة . السادسة عبد الحكيم ، السابعة د. ثروت ، الثامنة د. ثروت ، صاح د. ثروت :

من أين جاءت الورقة السابعة والثامنة إذا كان الحاضرون سـتة بما فيهم أنت أيها الأمباشي ؟ فرد الأمباشي سليمان وهـو لا يتمالـك نفسه من الضحك : وهل الخفر بالخارج ليس لهم رأي؟ أطـاح عمـر بالجوزة من يده علي طول ذراعه في اتجاه الأمباشي سليمان وهو يسب ويلعن أباه وأمه ومن أجلسه معهم،ووجه حديثه إلي الرائد عبد الحكيم :

من أتي بهذا الحمار ليجلس معنا يا سيادة الرائد ؟ فـرد الرائـد عبـد الحكيم ولا زال الضحك يملأ شدقيه :

ومن سيخدم علي القاعدة ؟ عاجله عمر :

قاعدة إيه وواقفة إيه ، هي دي بقت قاعدة .

- لماذا أخذت الموضوع بهذه الجدية ؟

فتدخل سامبّو : ليس علي الحشاشين حرج .

لكن الدكتور ثروت قال بجدية لا تتناسب مع الموقف :

الموضوع لا بد أن يؤخذ بجدية يا جماعـة ، المسـألة هنـا خلاف حاد بين مذهبين ، وعلينا أن نحدد أيهما سنتبع ، إن كنـا نريـد فعلاً الصواب .

فرد الرائد عبد الحكيم : صواب إيه وخطأ إيه يا دكتور ، هو إحنا فـي مجلس الشعب ؟

فانطلق سامبّو في تصفيق حاد وهو يردد : إجماع يا ريس .

فانفعل الدكتور ثروت وقد طار ما تناوله طوال الجلسة :

إجماع إيه وهباب إيه ، العملية بجد مش هزار .

فرد سامبّو وقد أخذته نوبة إفاقة ، محاولاً تهدئة الدكتور ثروت :

جد إيه وهزار إيه يا عمنا ، وعموما ، إن كان الموضوع جد فأنـت أخذت صوتين أثنين فقط ، وأصوات باطلة كمان ، ويعتبر الفائز هـو عبد الفتاح ، بجد هو الفائز ، بهزار هو الفائز .

فازداد الدكتور انفعالاً : يا إخوانا لا تجعلوني ألعن عبد الفتاح
ومن مع عبد الفتاح ومن وراء عبد الفتاح
، إحنا بنفترض ، لو لم يكن عبد الفتاح ،
أو لو غاب عبد الفتاح ، أتنتهي المجموعة
ويعود كل شيء لأصله ؟

وبينما بدا للجميع أن الليلة قد ضاعت هباء ، وحين شعر سامبّو أن الأمور قد بدأت تأخذ مأخذا غير مضمون العواقب ، انسحب خارجاً دون أن يشعر به أحد ، بينما بدأت باقي الشلة في الانسحاب واحداً وراء الآخر .

***

لم ينم عمر تلك الليلة ، أصبحت فكرة التخلص من عبد الفتاح تؤرقه كثيرا، لم يكن يحب ذلك ، فما زال لعبد الفتاح في نفسه شيء خاص ، غير أنه هو الذي يفكر في ذلك ، فكيف أتركه يتخلص هو مني ؟ انزاح جزء من الستارة الحاجبة فانقشع الغمام عن بعض ما كان ، وانفرشت أمام عينيه مساحة الرؤية وامتدت علي بعد خمسين عاما ، شخصت لحظة أن تعرف علي عبد الفتاح وكانا لا يزالان في سن الصبا والحلم ، في (اسطنها) ، فيها كونا أول خلية في مجموعتنا التي اتسعت فيما بعد وأصبحت أخبارها تغطي البر كله ، لم

تكن أحوالك المادية علي الوجه الذي ترضي عنه يا عبد الفتاح ، ولم يمنع ذلك صداقتنا التي جعلتني أرتبط بك ، بل وأشاركك في الكثير مما تفعل ، كم كانت لنا في ليالي الصيف التي ارتبطت معنا بكل الذكريات وبالتحديد في شهر يوليو الذي كان في البداية شهر الأجازة من الدراسة ، عندما كنا بالدراسة لم نزل والتي لم يكملها أي منا ، لم تكن الأسباب المادية وحدها التي حالت بيننا وبين ذلك ، ولكن كما كنت تعلم وأعلم ، تتعلق أولا بنا نحن ، وما استطعت يا عبد الفتاح إقناعنا به ، ولا شك أنك كنت تمتلك موهبة الإقناع والتأثير في الآخرين ، فما زلت أذكر جيدا كيف استطعت التأثير فيّ وفي الآخرين بأن ما نفعله هو الحلال بعينه ، وكنت تردد أن هؤلاء لم يتعبوا فيما هم فيه ، فقط ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، وما آباءهم وأجدادهم إلا مغتصبين وما حصلوا عليه إلا بسخرة الفلاحين والمعدمين ، فما نفعله اليوم إنما هو استرداد لحقوق هؤلاء ، كم كانت لنا من ذكريات في شهر يوليو بصفة خاصة ، فكان ما يحمله من حر لافح يجعل النوم عصياً ، والناس فيه يسهرون معظم الليل ، وعند الفجر ينامون ، فنبدأ عملياتنا .

لم يكن الجوع دائما هو الذي يدفعنا للسطو يا عبد الفتاح على حقول الفلفل والبصل الأخضر والطماطم أو على كرمات العنب وإسقاط البلح من علالي النخيل المتعالي ، لم نكن نهتم كثيرا بما يحدث

من بقع في جلابيبنا ، فلم يكن يهتم بذلك أحد ، ولـم تكـن أمهاتنـا يضربننا مثلما كان يحدث مع الولد مدحت أبو عمر الذي منعته أمـه من الخروج معنا بعد ما رأت من بقع علي بيجامته التي كنـا نحسـده عليها وكان بها غريبا علينا ، محتمين بغابات النخيل المترامية خارج حدود المباني في القرية ، والتي صنعت لنا خيمات ظللت علينا وحمتنا في كثير من المواقف التي تعرضـنا فيهـا للمطـاردة وحببـت إلينـا المغامرة ، وأيضا لم تكن المغامرة وحدها التي قادتنا ، فكم كانت رغبة الانتقام من أصحاب هذه الزراعات تدفعك وتدفعنا إلـي المزيـد مـن الاستيلاء علي كل ما في أيدي الآخرين ، خاصة بعد الذي كان من أحد أصحابها معك يا عبد الفتاح ، منذ أن نالك ما نالك يـوم ضـبطوك مختبئا بين شجيرات الفلفل تعبئ في حجر جلبابك ، يومها كنت منفرداً قد سطوت علي أحد حقول الفلفل ، ويبدو أن صـاحب الحقـل كـان متربصاً بك ، تركك حتى أوشكت علي ملىء حجر جلبابـك بالفلفـل ، أصر صاحب الحقل يومها علي انتقاء الحريف منها وكبسه في فمـك ، ظللت بعدها تصرخ من الالتهابات بفمك ما لا يقل عن يوم بطولـه ، وتعاني في مناطق أخري ما لا يقل عن العام بأكمله ، لـم يكـن مـن أصحاب الأطيان ، لكنه علي أي حال كان يملك ما لم تكن تملكه يـا عبد الفتاح ، ولولا حضور والدك - يومها - لأصر الرجل علي أن تتناول كل الذي جمعته من الفلفل ، ظل والدك يستجدي صاحب الحقل

للعفو عنك وتولي هو ضربك بكل ما أتي من جهد ، ألم تكن يـا عبـد الفتاح تلك هي بدايتنا ، انحفر ذلك في ذاكرتك ولم يمحه منها كل مـا حدث بعد ذلك ، كان تصميمك ألا نكون أقل من أولئك الذين يمتلكون ، بل لا بد أن نحرمهم ما يمتلكون ، أصررت علي أن تجعل كـل مـن يملك يشعر بالحسرة والمرارة ، كنت تسعي أن تجعل كل واحد ينـدم علي اليوم الذي وجد نفسه فيه يملك ما لا تملك ، رحنا نحلم أن نُكَوْنَ مثل ما كونوا ، وليكن علي حسابهم ، حلمنا بتكوين مزرعـة كبيـرة للموالح والمواشي لا يضاهيها آي مزرعة في البر كله ، بعدها نصـبح من أصحاب الأطيان والمشاريع ، خططنا أن يتم شراء أرض بكل ما سنحصل عليه إلي أن تصبح مزرعة كبيرة لا يوجد لها مثيل في البـر كله ، كانت أحلامك كبيرة يا صديقي ، كما كانت إمكاناتـك فقيـرة ، صدقناك عندما وثقنا بك ، طلبت أن يتم شراء الأرض باسمك يا عبد الفتاح - مؤقتا - قلت أن ذلك أمام الناس فقط ، وسيتم تحديد نصيب كل منا عندما تستقر الأمور ونبدأ بالفعل في تكوين المزرعة ،صدقناك ، فقد كنت الوحيد بيننا الذي لم يرتبط بشيء آخر ، كل منا كـان قـد انشغل بشيء ما ، وكنت أنت المتفرغ فينا والذي يمكن أن يتم كتابـة الأرض باسمه ، حتى لا يصل الشك إلي الآخرين ، كما كنـت تحلـم بالتجميع ، ففي التجميع قوة ، ولما أن بدأت عملياتنا تتسـع وتنتشـر ، وبدأت تؤتي أكلها ، بدأنا بالفعل في عمليات الشـراء والسـعي نحـو

تحقيق الحلم ، لم يكن يجرؤ أحد من القرية علي الممانعة فـــي البيـــع ، فكان لنا الأرض التي تقع عليها أعيننا ، لم يكن ذلك بالطبع يتم في كل مرة ، فقد عرفنا استخدام الوسطاء ، يكفي أن نوعز لأحد العيون الذين زرعناهم ، وكم كانوا كثيرين ، قلت أنه لا بد أن يكـــون لنـــا عيـــون وأبواق تَحمِل وتُحمِّلُ بما نريد من وإلي القرية ، وكما توقعت ، كـــم أفادونا وكم من الأمور تيسرت علي أيديهم .

وحينما انضم إلينا يا عبد الفتاح بعد ذلك ، عبد اللطيـــف وكمـــال وزكريا و سالم ومحيي ثم السيد نافع ، هذا الذي اســـتطاع أن يميتنـــا جميعا ، دون أن تلوث يده قطرة دم واحدة ، وغيـــرهم وغيـــرهم ، كبرت عملياتنا ولم تعد تلك العمليات الصبيانية ، بـــدأنا الـــدخول فـــي عمليات سرقة المواشي وبدأت الأعين تتجه إلينا ، وفي أول عملية تـــم القبض على عبد الرحيم الذي لم يستطع المقاومة كثيرا لم يكـــن قلبـــه كقلبك يا صديقي ، لم يحتمل ، اعترف علي اثنين آخرين منـــا ، لـــم يستطع الاعتراف على الأخرين بعد أن هددته بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو نطق بحرف واحد بعد ذلك ، وهل كان يملك أمامـــك إلا أن يستجيب ؟ اشتدت نقمتك وأقسمت علي الانتقام ممن أبلـــغ عنـــا ، سوينا في الليل قمحه بالأرض مهروسا حتى لم يعد يُجدي معه نفعا ، وزدنا عليه رسالة تؤكد أن ما حدث ما هو إلا عينة صغيرة لما يمكـــن أن يحدث إن هو تكلم بشيء ، طلبت أن نأخذ العهد علـــي أنفســـنا ،

والخائن من بيننا ليس له إلا الموت ، أقسمت أن القتل سيكون بيــديك أنت شخصيا ، لم يكن أحد يقبل مثل هذا التهديد الواضح منك إلا بعــد أن كنت قد أخذت عهد الإمارة علينا ، سلمنا لك طائعين ، لا ننكر أنك كنت تملك القدرة علي هذه القيادة ، ولم نكن نعرف أنك ستصــل إلــي هذه الصورة التي أصبحت عليها، ولا بد أن كلاً منا فكر منفــردا و بدأ الهمس مع نفسه فيما فكرت أنت فيه ، لا من أجل استخلاص حقــه منك فقط ، ولا من أجل الإمساك بالمجموعة فقط ، ولكن ليذيقك غدر الصحاب الذي بدأت به ، ومنذ أن بدأت الأمور تتكشف عــن وجهــك الذي لم يكن في تصورنا عندما بدأنا ، منذ أن أصبحت تنفرد بالرآى والقرار وكأنك الوحيد في المجموعة ، وأصبح كــل مــا نشــتريه ، رضاءً أو كرهاً ، أصبح يعرف باسمك ، إن اشترينا أرضاً ، تعرف بأرض عبد الفتاح ، وإن بدأ بناء مصنع للألبان ، يعرف باسم مصــنع عبد الفتاح ، وإن تم بناء مزرعة الدواجن تعرف باسم مزرعــة عبــد الفتاح للدواجن ، وإن تم بناء مزرعة المواشي ، تعرف أيضاً باســم مزرعة عبد الفتاح للمواشي ، أصبحت أنت الذي يحدد العملية التــي علينا القيام بها ، من هو الضحية ، من الذي سيتولى التنفيــذ ، مــن سيتولى المراقبة ، غير أنك يا صديقي لم تحدد يوما ما الذي ســيتم إن تم الإمساك بأحد أفراد جماعة التنفيذ ، أكان ذلك ثقة واطمئناناً ، لا .... فلم يكن ذلك يعنيك بقدر ما يعنيك ماذا ستضيفه العمليــة إلــي

رصيد كومة الأوراق والتسجيلات التي ترفعك عن الأرض وتعلو بهـــا شيئا فشيئا ؟ ولم تكن تعلم أن الإنسان كلما ارتفع عن الأرض كـــان ذلك أسهل في اصطياده ، ولم تكن تعلم أن كومة الأوراق بعود صغير من الكبريت يمكن أن تصبح هشيما تذروه الرياح ، فتجد نفسك تقف علي الأرض مثل الآخرين ! ربما كنا قد فقدنا القدرة علي المناقشة ، حينما بدأت في التخلص من كل من يفكر في معارضتك ، ولو حتـــى بالرآى ، علي الرغم من أن لكل منا نصيبه في الأرض وفي كـــل مـــا أصبح لديك ، كانت البداية هي التخلص مـــن كمـــال عنـــدما أبـــدى اعتراضه علي توزيع غنائم عملية زرائب عاصم بيه ، قررت يومهـــا ضرورة التخلص منه جسديا ، كان مبـــدؤك أن مجـــرد إبعـــاده عـــن المجموعة ليس كافيا لأنه يمكن أن يبلغ عن أسرار المجموعة ، وحمل القضية إسماعيل الذي كان علي استعداد لأن يلقي بنفسه في النـــار لـــو أنك طلبت منه ذلك - قتل خطأ - ولم تكلف نفسك بعد ذلـــك حتـــى متابعة احتياجـــات أســـرته ، وكنـــت تريـــد أن تخبـــر الجميـــع أن (رأس الحكمة ..... في رأس الكبش الطائر) . وإن نســـيتُ يـــا عبد الفتاح لا أنسي يوم تخلصت بنفسك من عبد اللطيف ، ولم يكن إلا لمجرد أنه أبدى تحفظا علي عملية السطو علي حدائق سعيد باشا لكثرة الحراسة عليها ، بعد أن كان الخوف قد سيطر علي القريـــة و ســـاد الرعب وانتشرت أعمالنا وأصبح الجميـــع يعرفـــون مـــن وراء تلـــك

الأحداث كلها ، ولم يكن ذلك بين أفراد المجموعة فقط يا عبد الفتاح ، بل إن أحدا من أهل القرية لم يكن يستطيع النطق أو الحديث لأنه يعرف ما سيؤول إليه مصيره إن هو فعل ، وإن كنت أعترف اليوم بيني وبين نفسي أن ذلك لم يكن خطأ كله ، فلا أنكر أنه ساعد في تيسير الكثير من الأعمال فيما بعد ، حتى الشرطة نفسها ، ورغم علمها بمجموعتنا كاملة إلا أنها لم تفكر يوما في مهاجمتنا أو حتى توجيه الاتهام إلينا في أي مما حدث ، في - البداية - لأن بلاغا لم يوجه إليها ضدنا ، ثم بعد ذلك لأنك عرفت كيف تُسيِّر أمورك معهم ، كما استطعت زرع العيون داخل الجدران ، جدران الشرطة نفسها ، فكان لدينا علم بكل تحركاتهم ، بل ونواياهم قبل تحركاتهم ، ثم لأنهم بعد ذلك قد أصبحوا يخشوننا ، بل والاستعانة بنا في كثير من الأحيان ، وصار التعاون مشتركا فيما بيننا ، بل قد أستطيع أن أزعم بأنها أصبحت تعمل لحسابنا في باطن الأمر ، أما ظاهره فبالطبع غير ذلك ، حتى أصبحنا نحن الذين نُسير الأمور في الدائرة والمتحكمين في مصائرها ، أصابنا ذلك بالانتشاء والزهو حتى بتنا نحاول اختبار قوتنا في الكثير من الأحيان ، كنا نُوعز إلى أحد رجال القرية البارزين والذين لهم شأن فيها ، أننا ننوي شراء أرضه التي تقع على الترعة البحرية ، بينما لم نفكر يوما في مثل هذه الأرض التي تعتبر (مدفونة) ولا تصلح لنا ، فيبيت الرجل ويصبح لا هم له غير التفكير

في كيفية التخلص من هذا الطوفان القادم والذي ليس له منه مهــرب ، يروح يسعى لدي أحد رجالنا المعروفين في القرية يسأل ، فيجيبه بأنه لا علم له بهذا ، يسعى لدي الشيخ أحمد يحيي ظنا منه أن له قــوة مــا لدينا ، يعيش الرجل في رعب فترة تطول وتقصر حتى يجدنا قد أقدمنا بالفعل علي شراء أرض أخري ، فيتنفس الصعداء ، كما كنت تحــب إثارة الدوامات التي كنت تجيد استغلالها في فعل ما تريد فعله ، لم يكن يتطلب الأمر منك إلا تكليف سامبّو أو أبو الهول لإطلاق شائعة فــي القرية ، تحدث الدوامات بين أهلها ، وأيضا لم يكن يُطفئها إلا نحن ، وأصبح تسيير أمور القرية لعبتنا ، فلم يكن الأمر صعبا ، خاصة بعد أن امتلأت القلوب بالخوف وسرى في دمائها ، فبات أمر قيادهم أيسر من قياد قطيع من الماشية ، كما لو كانت الناس قد رهنت نفسها لكــل من يريد أن يُسيِرَ أمورها ، امتنع الناس عن الخــروج بعــد صــلاة المغرب ، لم نطلب منهم ذلك ، بل تطوعوا به من أنفسهم وكــأنهم يقدمون الخدمات دون طلبها ، حتى صلاة العشاء ، أصبحوا يفضلونها في بيوتهم ، اللهم إلا الشيخ محمود الحسيني مؤذن وإمــام وخطيــب مسجد القرية الذي لم يكن لديه ما يخافه والذي حقيقة كنــا نعمــل لــه خاطراً وحساباً لفترة طويلة إلي حين أن تجرأ وهاجمنــا فــي خطبــة الجمعة الأخيرة من رمضان وأسهب في الدعاء بتنظيف القرية ممن لا

يخشون ربهم ، وكنا نعلم بالتحديد من أولئك الذين يعنيهم ، و لم يكن حاضراً صلاة عيد الفطر

***

لم تكن تري الشيخ أحمد إلا باشاً مبتسما ، يداعب الصغير قبل الكبير ، وعندما كان يجلس بين الرجال في دكان أبو العباس عند العصارى ، كنت تستطيع سماع ضحكته علي بعد مسيرة عشر دقائق.

غير أن دوام الحال من المحال ، فقد غامت الابتسامة وأصبحت ظلاً خابياً وبدا شارداً بعد أن قصده صديقه عاصم بيه عقب سطو المجموعة علي احدي حظائر ماشيته ، ولم يستطع الشيخ أحمد أن يفعل لصديقه شيئاً ، فقد كانت سلطته الرسمية والودية قد تقلصت كثيرا ، وما انعكس عليه من ضعف في ذاكرة بعض أهل القرية ، خاصة الشباب منهم ، وكأن الناس جميعاً قد أدمنوا الأفيون فأصبحوا وكأن أمساً لم يمر بهم ، أو كأن ما كان لم يكن ، فأسدلوا عليه ستائر النسيان ، فتماهت دولته ، بل كادت تتلاشي ، سواء لاستيلاء نقطة الشرطة علي سلطاته ، أو لاستيلاء المجموعة علي هيبته . فإذا كان المفترض أن نقطة الشرطة قد أقيمت علي أساس مقاومة أعمال المجموعة ووقف تعدياتها علي أهل القرية ، إلا أن ما حدث كان علي غير ذلك ، فإقامة النقطة ذاتها جاء وبالاً علي من جاءت لحمايتهم ،

حيث جاء البناء أولاً علي أرض منتزعة - للملكية العامة - من أرض عاصم بيه التي كانت تجاور أرض الشيخ أحمد وتشترك معها في الحدود الغربية ، والتي كان الشيخ أحمد يقيم عليها منزلاً لابنه لبيب المهندس الزراعي ليتزوج فيها من ابنة عاصم بيه والتي لن توافق بالطبع علي الإقامة مع العائلة بالدوار . رأت المجموعة أن هذا المنزل هو أنسب الأماكن لإقامتها وفقاً لما انتوت عليه من أهمية مجاورة نقطة الشرطة فإن لم يكن لتأمينها إياهم ، فعلي الأقل لتحييدها وتحديد عملها تجاههم ولضمان متابعة عملها وتحركاتها قبل أن تتم ، ولم يكن ذلك ليتم بالطبع عن طريق المجموعة ذاتها ، ولكن عن طريق (سامبّو) فتولي هو الاتصال بمن يتفاوض مع الشيخ أحمد ، غير أن ذلك لم يكن موفقاً من المجموعة في هذه العملية بالذات ، ففضلا عن سابق تجربة سامبّو مع الشيخ أحمد ، لم يكن يخفي علي أحد من أهل القرية من هو (سامبو) إذ لم يكن إلا أحد أبواق المجموعة المعروفين وعيونها ، حتى بات الجميع يخشون الحديث أمامه - و لم يكن إلا واحدا من مجموعة انتشرت في القرية استطاعت المجموعة كسبها بسهولة منقطعة النظير إلي صفوفهم - فما أن يظهر في مكان حتى ينخرس الكلام علي الشفاه ، مؤكدين أن للحائط آذان . واعتبر (سامبّو) نفسه بعد ذلك أحد ورثة المجموعة الأساسيين – كاشفا عن دخيلة نفسه - بعد المذبحة الشهيرة لأفراد المجموعة وأحد الواقفين بشدة أمام السيد

نافع في نزاعه حول الميراث ، فكان هو الذي يتولى عملية إغــراء أجراء القرية للعمل في أرض المجموعة ومنحهم الأمل في الخير الذي يمكن أن يعود عليهم ، حيث المستقبل والغلبة للمجموعة في النهايــة . ولما كان عبد الفتاح ورجاله قد استقر بهم الحال ، بدأوا في فــرض و تثبيت وجودهم ، استخدموا الأساليب المتنوعة في الحصــول علــي الأرض الزراعية ، خاصة تلك المقتطعة من أرض عاصم بيه ، ربمــا لأسباب نفسية ، وربما لأسباب أمنية . أرادوا بناء مزرعة للــدواجن ومصنعا للألبان علي تلك الأرض الزراعية ، آملين أن يبدأ العمل فيها جميعاً في خلال عام علي الأكثر ، كما كانوا قد بــدأوا فــي اجتــذاب العمال الزراعيين للمتبقي من الأرض للزراعة ، وبالطبع كــان ذلــك علي حساب زراعات عاصم بيه أو الشيخ أحمد ، ودار أبــو الهــول يهرول في البلدة يشخلل بأجراسه ويردد بنبــرات اســتطاعت القريــة تمييزها ، الخير جيّ ، والله حيّ ، الله حيّ ، انزرع الأمــل في بعض النفوس ، خاصة أولئك الذين لم يكن لهم في الأمر شــيء ، ولا تخيفهم المجموعة في شيء . فنجحت بهذه الأبواق فــي اســتمالة الفلاحين الذين بدأوا في تحيتهم واستقبالهم والالتفاف حولهم مرحبين ، كما هي عادة أهل القرية الذين ينسون أو يتناسون بأسرع مما يتذكرون ، فتحول الولاء – خاصة الشباب منهم – إلي المجموعة ، ولم يعــد الكثيرون منهم يقومون احتراماً للشيخ أحمد إذا مر أو حتى ينزل عــن

حماره إذا مر عليه جالساً أمام الدُوار ، غير أن كل ذلك لم يكن ليثني عزم الشيخ أحمد فلم يكن ليوافق علي عملية البيع وخاصة لهذا أل (سامبّو) إذ أن ذلك يعتبر عيباً لا يغتفر في حق العائلة بصفة عامة وفي حق الشيخ أحمد بصفة خاصة ، وقد هاج واعترض ابنه لبيب وثار وهدد بفورة الشباب وتوعد وأقسم ألا يتم ذلك إلا علي جثته ، غير أن رسائل معلومة المصدر جعلت الشيخ أحمد يتراجع صاغراً في الاعتراض ، بل ويحاول أن يقنع ابنه لبيب ، الذي أصر علي عدم الموافقة ، لكنه لم يكن يملك الموافقة أو عدمها ما دام الشيخ أحمد لا يزال علي قيد الحياة وهو الأكثر خبرة والأدري بالصالح وما فيه المحافظة علي أولاده ، حاول لبيب أن يستغل هذه الرسائل ليوقف عملية البيع ، ذهب بنفسه إلي نقطة الشرطة يتهم أفراد المجموعة بالتهديد لإجبار الشيخ أحمد وإكراهه علي ما لا يحب ، غير أن الشرطة لم تكن لتفعل شيئاً دون دليل ملموس ، حاول عن طريق القاهرة بمحاولة الاتصال بالمسئولين أو كتابة الشكاوى ، لكن الأمر في النهاية هو تحويل هذه الشكاوى إلي نقطة شرطة القرية للاختصاص ، ودار أبو الهول دورته بصوته المبحوح وكلماته غير الواضحة يخرف كعادته ، لكنهم يأخذون كلامه فألاً ، (بيع يا عبد الموجود د الرزاق موجود) ، خشي أفراد المجموعة أن يستطيع لبيب عرقلة ما أرادوه بما يفعله من إزعاج ، كانت الرسالة له شخصيا .

في القاهرة اعترضه من لا يعرفــه مــدعيا عرقلتــه ، افتعــل مشاجرة ، علي إثرها تمت إصابة لبيب بعاهة مستديمة في أحد الأماكن الحساسة ، ورغم إدراك لبيب الكامل لتلــك الحيلــة الســاذجة ومــن وراءها ، إلا أنه ظل عاجزا لا يستطيع فعل شيء ، ولم يتزوج مــن ابنة عاصم بيه بعد أن عُرف الأمر ، و ليتم البيع ، ويمتنع لبيب عن النزول إلي القرية لسنوات عديدة حتى كاد بعض أهلها ينسونه . و لــم يعد الشيخ أحمد يُري غير صامت ساهم ، ولو ألقي عليه أحدهم التحية لا يرد سوي بالإشارة أو الإيماءة ، التمس بعضهم له العذر ، توقعوا أن الشيخ أحمد وما عرف عنه من قدرة علي التحمل ، لا بد خارج من هذه الكبوة ، بل وأشد منها ، غير أن الأمر طال ووصل إلــي أهــل بيته ، لم يعد يتكلم مع أحد منهم وأصبح كثير الوحــدة لا يميــل إلــي مخاطبة أحد أو مداعبة أحد من أحفاده كما كان يحلو له دائما ، ظنــه البعض قد فقد القدرة علي الكلام وظن آخرون أن به مرضا لا يريد أن يفصح عنه ، حاول الكثيرون معرفة حقيقة ما به ، غير أن محاولاتهم كانت دائما تصطدم بحائط صخري ، لمحته الحاجة جميلة ذات مــرة والشيخ عبد المنعم العليمي - حلاق القرية - يغــرف لــه بعــود كبريت من حُق صغير شيئاً ما ويضعه له في كوب الشاي ، ابتسمت الحاجة جميلة ابتسامة خجولة و أدارت وجهها متجاهلة وكأنها لم تــر شيئاً ، وعندما خلت إليه همست (يا راجل إنت لســاك بتفكــر فــي

الحجات دي) ؟! . أعارها الشيخ أحمد ابتسامة باهتة ولـــم يجـــب .
ولما طال بقاء الشيخ أحمد في المندرة الداخلية واعتزل الناس ، انتـــاب كمال قلق وغم ، و فكر في ضرورة إخبار أخويه ، غير أنه آثر كتمان الأمر ، فربما كان الموضوع عابرا ولا يستحق كل هذا القلق ، ذهب كمال إلي طبيب الوحدة الصحية – التـــي تـــم إنشـــاؤها مـــؤخراً – لاستشارته في أمر والده ، فأصر علي ضرورة الذهاب معه لرؤيـــة الشيخ أحمد ، أولاً لأنه لا يصح أن يعلم أن الشيخ أحمـــد بـــه مكـــروه ويتأخر عنه ، ثانياً للوقـــوف علـــي الحالـــة بنفســـه حتـــى يســـتطيع تشخيصها ، تعلل كمال بأنه سوف يغضب إن هو علم بذهابي إليك ، وربما يرفض حتى مقابلتك أو الاعتراف بشيء أمامك ، أنت تعلم كـــم نفسه عزيزة ولا يحب الاعتراف بالضعف حتى لو كان المرض ذاته.

ولكن في حماس زائد أصر الطبيب علي ضرورة الـــذهاب معـــه مؤكدا أن الأمر غريب وربما يكون هناك ميكروب معين يسبب هـــذه الحالة فليست حالة الشيخ أحمد هي الوحيدة ، فأنا أعلم أكثر من حالـــة مثلها ولكن للأسف الشديد أن معظم من أصابتهم لم يشأ واحد منهم أن يبوح بها وكأنها جرب يخشون الاعتراف بـــه ، والأغـــرب كـــذلك أن غالبية من أصابتهم هذه الحالة من رجالات القرية ، ولم يصادفني حتى الآن – علي الأقل – واحد من فلاحي القرية .

وما توقعه كمال بالفعل كان ، إذ رفض الشيخ أحمد مقابلة الطبيب وعنف ابنه وثار عليه ثورة صامتة معبرا بالإشارة عن رفضه و احمر لها وجهه كثيرا فوق احمراره حتى أصبح كالديك الرومي ، عندها تأكد لكمال عجز أبيه تماماً عن الكلام وأصر علي ضرورة استدعاء إخوته وشرح الأمر لهم وليكون القرار لهم جميعاً ، فوحده لا يستطيع فعل شيء ولن يقدر عليه سوي ابنه الأكبر لبيب الذي يعمل لـه الأب ألف حساب – علي الرغم مما أصابه – غير أن الطبيب لم يمهله لفعل شيء ، دخل عليه المندرة وأبدي كثير اعتذاره لدخوله بهذه الطريقة مؤكدا أنه يشفع له حبه لشخص الشيخ أحمد وقد سمع عنه الكثير ، ولخوفه من الحالة ، هز الشيخ أحمد رأسه بإيماءة تعني التهوين من الأمر وأن لا شيء هناك يخيف ، لكن الطبيب طلب ضرورة الفحص ، وتحت إلحاحه استسلم الشيخ أحمد .

راح الطبيب يفحص الشيخ أحمد بكثير من العناية ، لم يستطع التوصل إلي شيء ، أكد علي أهمية الذهاب إلي مستشفي المركز لعمل بعض التحاليل ، إلا أن كمال هو الذي تدخل هنا ورفض مؤكدا أنه عندما يحضر إخوته فسوف يذهبون به إلي أكبر مستشفي في القاهرة ، وأمام هذا الإصرار استسلم الطبيب متمنيا الشفاء العاجل ومؤكدا علي عدم ترك الأمر . غير أنه لم ينم تلك الليلة وراح يفكر فيما يمكن أن يكون سبباً في هذه الظاهرة .

ولكن جزءاً كبيرا من حيرته سرعان ما تلاشت في غضون بضعة أيام ، إذ بدأت بالفعل تصل إليه أخبار عن حالات من الفلاحين ، حتى وجد الأمر لا يحتمل السكوت فأبرق إلي مستشفي المركز طالباً ضرورة إرسال بعثة طبية إلي القرية لبحث الموضوع .

***

غاب الشيخ أحمد عن كل ما حوله ، غرق في دوامة الدماء الساخنة المتدافعة في عروقه وهو يتصور ما آلت إليه سراية عاصم بيه من مأوي لاستجلاب الساقطات من القرى المجاورة ومن البندر بعد أن كانوا قد نجحوا في اجتذاب بعض رجال الشرطة أنفسهم للسهر معهم ، ورغم ما كنت فيه يا أحمد ، إلا أن شيئا لم يكن يغيب عليك .

كنت علي علم بما يكنه جدي لي من حب ، طالما استغللته ، وهو يعلم ذلك ، ورغم ذلك لم يكن يرفض لي طلبا : سألته عن حقيقة ما حدث ، وأكدت له أهمية ذلك بالنسبة لي ، شعر بجديتي هذه المرة ، فوافق علي حكايتها :

لجهلهم ، ظنوني قد عجزت عن الكلام وعن السمع ، وما كانوا يعرفون أن أحاديث البلدة تخترق سمعي وتغرس الأشواك في جسمي ، كم كانت تلك السراية تمثل لنا من خير ،

كم أطايب الفاكهة ذقت يا شيخ أحمد ، وما من مناسبة أو موسم لفاكهة إلا وكانت الخيرات منها تنهال علــي الــدوار ، إنهــم لا يعلمون ذلك الإحساس الذي كــان يلازمنــي كلمــا دخلــت تلــك السراية ، أتصبح اليوم وكرا وبيتا للموبقات والفواحش ، برز عمر علي وجه التحديد في مطاردة البنات الصغيرات .

واحدة منهن فعلت به ما لم تستطعه القرية ، نجحــت - دون قصد - في تفتيت شملهم وتفريق جمعهم .

أطارت صوابه ، أخرجته حتى من التفكيــر فــي العمليــات الليلية ، أصبح يتعلل كل ليلة مدعياً أن إجهادا قد أصابه أو ألمــا ألم به ، أثار ذلك فضول عبد الفتاح ، أرسل يتقصــى الأمــر ، علم بأن مغنية من مغنيات الموالد الجوالة في القرى ممن يجلبهن عمر ورجاله من البندر قد وقع عمر في غرامها وأنه يهــيم بهــا حتى أنه يفكر في الزواج منها ، رغم كل ما تحمله يا أحمد لعبــد الفتاح ، إلا أن الحقيقة التي لا تستطيع نكرانها أنه لم يكن يميل إلي مثل هذه الأمور لم يكن يشأ لأي شيء أن يقف في طريق حلمه في مصنع الألبان و المزرعة التي لا يوجد مثلها في المنطقة بأسرها ، امتلك الحلم عليه حياته ، تصور نفسه يقف إلــي جانــب كبــار الباشاوات والكبار، لم يكن يريد لأحد منهم الوجود حتى يكون هو الكبير ، ولا كبير غيره ، حاول في البدايــة أن يُلَمِّــحَ لصــديقه

بضرورة الابتعاد عن هذه الأمور ، لكن عمر كان هو الوحيد الذي لا يخشاه ، فلم يكن يستجيب للتلميح ، حتى لو أدرك تمام الإدراك ما يعنيه عبد الفتاح ولا يستطيع الجهر به ، لم يجد عبـد الفتـاح مفرا من تجربة ما تعود عليه مع الآخرين ، تسليط البعض علـي البعض ، بينما يقف هو علي البعد بيد نظيفة ، وكأن لا يد له فيمـا يحدث ويدور ، جاءه الحل دون عناء ، ومن أقرب الناس إلي عمر ذاته ، جاءه شمس هامساً . وقد كان لشـمس الـدين خصـومة شخصية وناظر عزبة الباشا التي تقع علي مبعدة بعـض الكيلـو مترات من اسطنها ، ولأنه كان يعرف طبيعـة شخصـية عبـد الفتاح الانفعالية ، فقد أوعز إليه بأن بعض عيونه قد نقلوا إليه أن حلمي باشا صاحب العزبة في أحد مجالســه خــاض كثيـرا فـي المجموعة وفي شخص عبد الفتاح بصفة خاصة ، وأنــه سيسـعى لدي المسئولين في المركز لضرورة تغيير ضابط النقطة باسـطنها لتحالفه مع المجموعة ، وقد حدد ضابطا بعينه سيحاول نقله إلـي البلدة ، وهذا الضابط معروف علي مستوي المركز بعنفه وشراسته . انفعل عبد الفتاح وأقسم أن يلقن هذا ال حلمي درسا يعلم معه من هو عبد الفتاح ، وضع خطة لمهاجمة عزبة الباشا ، وأوكل إلـي عمر تنفيذها ، وكأن عبد الفتاح قد أراد إما أن ينخرط عمر فـي هذه العملية ، وإما أن يكون فيها الخلاص منه ، إذ كان عمر هـو

الوحيد من بين أفراد المجموعة الذي لا يتمني عبد الفتاح أن يكون خلاصه علي يديه ، أخذ عبد الفتاح في تحفيزه بتكرار ما نقله إليه شمس الدين ، وكيف أن هيبة المجموعة معرضة للخطر إن هم لم يؤدبوا عبد الحليم ، وليكن عبرة لغيره ، خاصة وأنه من تلك الطبقة التي لا بد تحمل لهم كل احتقار وخوف ، لا بد أن يتعلم هذا أل حلمي من هي المجموعة ، ومن هو عبد الفتاح ، وأن عبد الفتاح لا يخشى هذا الضابط الذي يتحدث عنه ، وحتى لو أتي بوزير الداخلية نفسه ، يجب أن ينتابه الرعب قبل أن يفكر في الموافقة علي دخول القرية ، وحتى يزيد من حماس عمر للعملية سأله في شبه استنكار :

أعلي استعداد للعملية وتلقينهم الدرس ؟

فاندفع عمر علي الفور : عيب يا عُبد ، الم نقم بأكبر منها ؟ ألا تعلم أن وجودي بالجيش علمني الكثير مما لا يعرفه هذا الضابط ورؤساؤه ؟ فشعر عمر بالزهو والانتصار ، فقد أوشك ضرب أكثر من عصفور بحجر ، وشرب عمر الطعم .

***

كان والد عمر قد يئس من ابنه مثلما يئست البلدة كلها من المجموعة ، فكر في إبعاده عن البلدة ، طلب والده المساعدة ممن

تربطه بهم صلة قرابة بعيدة ، وكان يمثل رتبة لا بأس بهـا فـي صفوف الجيش ، فاستطاع أن يساعده في إلحاقه للعمـل بإحـدى الوظائف المدنية ، كمـا سـاعده علـي العمـل فـي منطقـة الإسماعيلية ، وبالتحديد في منطقة فايد ، حتى يضمن ابتعاده تماما عن البلدة ، غير أن عمر كان قد تشرب العمليات بالقرية وأصـبح من الصعب عليه تركها ، فأخذ يتحين الفرص للنزول للقاء رفيقـه ومجموعته ، و لم يكن ليضيع فرصة نزوله القرية في مثل هذه العمليات التي لم تعد تستهويه كثيراً دون أن يقضـي الليلـة مـع المحبوبة التي انحصر تفكيره فيها ، شعر عمر بأن تكليـف عبـد الفتاح له في هذه العملية ليس سوي توريط له واختبار ، لم ترق له اللعبة ، إذا كان عبد الفتاح يريد ملاعبته ، فقد قبل اللعب ، ولنري من المنتصر في النهاية ، طلب من شمس الدين رفيق سـهراتهم في سراية عاصم بيـه (سـابقا) القيـام بالعمليـة بـدلا منـه (من الباطن) علي ألا يعلم أحد بذلك واتجه هو إلي السراية ، إلا أن ذلك لم يكن يخفي علي عبد الفتاح الذي كانت الأخبار تصل إليه قبل أن تخرج من رأس صاحبها ، فوصل الخبر عبد الفتاح الذي توجه من فوره إلي السراية لمداهمة صديقه ومواجهته المواجهـة الحاسمة التي يكون فيها خلاصه منه ، غير أن النذير كان قد أتي بالموقعة الرهيبة التي دارت في عزبة الباشا ، بأن حراس العزبة

وخفرها كان قد وصل إليهم خبر الهجوم ، فاستعدوا واستيقظوا وأصروا علي أن يُلقنوا المجموعة درساً يتوبون بعده عن كل أفعالهم ، فأُخذ شمس الدين علي حين لم يكن يتوقع ، حيث أخذه طول ما فعلوا بما يشبه الغرور .

فما أن وصلوا أسوار قصر الباشا حتى انطلقت الطلقات من كل اتجاه واندفع رجال العزبة بالعصي كهجمة العاصفة لا تعلم لها مصدر ، وكانوا من العدد ما لم يستطع أحد حصرهم ، اضطرب شمس الدين ومجموعته ، ولم يعد بمقدورهم تحديد وجهة لهم ، أهل هم يندفعون إلي الأمام أم يتقهقرون إلي الخلف ، لكنه أدرك أنه ليس بمقدوره إلا التراجع وبأسرع ما يستطيعون .

بدأوا في التراجع والهروب ، انتشر الرجال في كل اتجاه دون ضابط أو رابط ، وأصبح علي كل منهم أن ينجو بنفسه ، غير أن الرصاص أصاب سبعة من رجال المجموعة، ثلاثة قتلي ، والآخرون أصيبوا بإصابات مختلفة ، تحامل المصابون واستطاعوا الهروب وسط زراعات القصب والهيش والقنوات ، و لم يتمكن باقي أفراد المجموعة من سحب المتوفين ، كانت الخسارة كبيرة للمجموعة ، وكان الأربعة من أمهر رجالها ، أشيع بعدها موت عبد الفتاح ، انقسم الناس بين مصدق ومن يؤكد أن عبد الفتاح لا يشترك بنفسه في هذه الهجمات فكيف يموت ، أصبح

القتلى دليلا للبوليس ومثـار تحقيـق ، البلـدة جميعهـا تعـرف الأربعة ، غير أن أحدا لم يتقدم ليدلي بما عنده ، و رغم انكسار المجموعة وسيطرة الشعور بالشلل بين أفرادهـا ، إلا أن الخـوف والتردد كان قد استقر في الأعماق ، إلا عبد الفتاح الذي سـرعان ما تماسك و استطاع بوسائله وعلاقاته أن يثبت أن المجموعة ليس لها أي علاقة بالموضوع برمته ، وأن هؤلاء القتلى لا يعلم هو أو أحد من رجاله عنهم شيئاً ، ولينته الأمر في النهاية بالقيد كحـادث سرقة من خارج البلدة ، وقد توفي السارقون ، وأصـبح التحقيـق يدور مع القاتلين. أصاب عبد الفتاح ألم نفسي لم يسـبق لـه أن عاناه بمثل هذا العنف ، ولم يتحامل علي صديقه عمر مثلما تحامل هذه المرة ، أعلمه بكل ما كان يعمل في الخفاء ، أخبره بأنه يعلـم كل ما يدور ، أنه كان يؤثر التجاهل وادعاء عدم المعرفة بما يدور عله يقلع من نفسه عما أغرق نفسه فيه ، أن يتنبه للأمنية الكبيرة التي عاشا من أجلها ، ولكن يبدو أنه لا بد من فض هذه الشركة ، اندفع عمر وكأنه وجد ما كان يبحث عنه من سنين :

خير ما تفعل ، إذن نجلس ونتحاسب ، يأخذ كل نصيبه ، وبعـدها نفض الشركة .

غير أن السيد تدخل بينهما محاولا التوفيق وتهدئة الأمـور ، تدارك عبد الفتاح نفسه وما هو مقبل عليه من تفتيت ما تجمع ،

وضياع كل شيء هباء ، هاله ما هو مقبل عليه ، وجد في تـدخل السيد القشة التي يتعلق بها الغريق ، تظاهر بامتثاله لصوت العقـل في حديث السيد ، فاستجاب دون عناء لمحاولاته ، الأمـر الـذي أدي إلي ثورة عمر علي السيد ، فانفجر كبركان يعاني الكبت مـن دهر :

إنك عشت طوال الوقت خارج المجموعة ، وليس لـك فيهـا شيء ، محسوب عليها ولا تعرف شيئا عنها ، فأنت لسـت إلا طـور الله فـي برسـيمه ، وصـمتك خيـر مـن كلامك ، و.................................

حاول السيد الدفاع عن نفسه وأن يـرد ويؤكـد أن لـه فـي المجموعة أكثر مما لك أنت يا عمر ، إلا أن عبد الفتاح الذي شعر أن الأمور قد تتشعب ويخرج عن النطاق وتضيع الفرصـة لـم يمهله ، تدخل هو محاولا لم شتات الأمور ، وأرجأ ذلك بعد أن كان قد استقر في ذهنه ما سوف يفعله ، طلب من عمر ضـرورة الخروج للراحة فلا يجب النقاش مع شـد الأعصـاب ، ولـيكن الحوار فيما بعد ، غير أن عمر لم يقاوم طويلا وانصاع للأمر ، بينما كان السيد قد سبقه في الخروج .

سعي عبد الفتاح إلي إنهاء آثار تلك الهجمة الفاشـلة علـي عزبة الباشا ، بالمزيد من العطايا لرجال الشرطة من جانب ولأهل

المتوفين من رجاله ، إلا أن حزنه علي الذين ماتوا لم يكن بقــدر حزنه علي تصور ضياع سطوته وانهيار مملكته ، فهده الحــزن ولزم بيته ، إستغرقه التفكير في أن ما حدث لا بد سيضعف هيبة المجموعة في المنطقة كلها وهو ما لم يكن يحتمله ، إضافة علــي أنه سيضطر إلي وقف كل العمليات لحين ، الأمر الــذي ســيؤثر حتماً علي تأخير تحقيق الحلم الذي كرس له حياته ، فبدأ بالفعــل التفكير في الخلاص من عمر ، غير أن ذلك لم يكن بالشيء السهل بالنسبة له ، حيث كان عمر قد استطاع أن يستميل عدداً كبيراً من أفراد المجموعة ، وخصهم بجلساته وسهراته ممــا جعــل مــنهم مجموعة داخل المجموعة ، وأسر عمر إليهم أنه إذا حــدث لــه مكروه فسيكون عبد الفتاح هو الفاعل ، أخذ منهم عهداً وميثاقاً إن حدث شيء ألا يضيع دمه هدراً ، وبما زرعه عبد الفتاح من عيون في كل مكان ، وصل إليه ما دبره صديقه ورجاله ، و أصبحت عملية الخلاص من عمر هي الشغل الشاغل لعبد الفتاح .

***

وفي اليوم التالي امتدت جلسة الشيخ محمــود الحســيني لتفســير الأحلام إلي صلاة الظهر ، في استحياء أخذ صبّاح دوره .. طلــب

إلي الجميع عدم الاستهزاء به ، ابتسموا جميعاً وطلبوا الـدخول فـي الموضوع دون مقدمات ...

خير اللهم اجعله خير ..

كانت نوبة ري ، كل واحد يقف علي رأس غيطه ، أمـا فـي انتظار الدور ، أو يجهز الأرض حتى يحين دوره ، انشـقت الأرض عن عبد الفتاح وسط مجموعة من رجاله الواحد مـنهم كمـا الطـور المعلوف ، ما أن رأيتهم حتى ارتعدت مفاصلي وسألت الله أن يمـر اليوم علي خير ، تقدم نحوي بينما أمسك رجاله بـي وألقـوني علـي الأرض منكباً علي وجهي وراحوا ينزعون عنـي ملابسـي ، رحـت أستعطفهم أن يأخذوا ما شاءوا ويتركوني في حالي ، تحـدث هـو بلهجة واثقة متأنية ..

لا تخف نحن لا نريد منك شيئاً .. نحن نريد فقط أن نطهر هـذا البلد ، راحوا يخلعون علي سروالي ، صـرخت بـأعلى صـوتي مستغيثاً وأرفس بكلتا ساقي ..

عيب يا سيد عبد الفتاح .. أنا راجل مش صغير .. عيب .

وبابتسامة باهتة ساخرة وبنفس اللهجة قال ..

يا راجل يا مخرف .. إنت فاكر إن فيه حد يبص لك ؟ !

برك اثنان منهم كل علي ساق ، وآخران كل علي يـد ، سـمروا حركتي فلم أعد قادراً علي أي حركة ، مد عبـد الفتـاح يـده فـي

مؤخرتي ، غاص بها كثيراً .. ثم .. نزعها وقد أخرج منها مصاريني وقال .. هذه لا فائدة منها ، أعاد إدخالها مرة ثانية وأخرج معها المعدة وقال وهذه لا داعي لها ، أدخلها مرة أخري ، تحسس القلب وقال .. بلاش ده ، عبث بأصابعه حتى وصل للكبد ، سحبه وهو يقول وهذا ما فائدته ؟ ومن جديد أدخلها مرة أخري ، غاص أكثر ، تجاوزت يده رقبتي ، وصل للرأس ، فرد أصابعه عن أخرها ، كبش كل ما بداخلها ، سحبها جميعاً رقبتي تؤلمني ، أخيراً خرجت يده ساحبة كل ما طالته يده وهو يقول .. وهذه لا احتياج لها ، تناول عبد الفتاح شيئاً من أحد الواقفين وأدخل يده مرة عاشرة ، وضع الشيء بالداخل ، وأخرج يده فارغة ، وكانوا قد حفروا حفرة كبيرة ، ألقوا بالأشياء بداخلها ، وكنت لا أزال أشعر بألم في مؤخرتي ولكن شعوراً بالخفة غمر جسدي كله ، وما أن نهضوا من فوقي حتى قفزت واقفاً بخفة وشباب ابن الخامسة عشرة ، توجهوا نحو النويهي بينما نظر عبد الفتاح اليَّ وقد أمسك بشيء في يده ، وجدتني منساقاً وراءهم ، بطحوا النويهي علي وجهه ، فعلوا معه مثلما فعلوا معي تماما بتمام ، وبعد أن انتهوا وجدت النويهي يقف بخفة ورشاقة ، نظر إليه عبد الفتاح وفعل شيئاً بالشيء الذي بيده ، وجدت النويهي ينضم إلينا في سيرنا نحو عابد ، طرحوا عابد علي وجهه وبعد أن انتهوا وجدته ينضم إلينا متجهين نحو العليمي ، بطحوه علي وجهه وبعدها وجدتني و النويهي

وعابد و العليمي نتجه نحو أبو العلا ، واستمر الحال حتـى فعلـوا نفس الشيء مع كل فلاحى الحوض ، طلب عبد الفتاح الاكتفـاء بهـذه المجموعة اليوم علي أن يذهبوا إلي حوض أخر في الغد ، انتطـرت واقفاً من نومي وأنا أحك مؤخرتي وعينيَّ زائغتان أبحث عن شيء .

ابتسم البعض وقهقه آخرون وهمس البعض بالتعليقات الساخرة ، وبعد فترة صمت سأل الشيخ محمود الحسيني عن أخبـار أم العيـال ، ابتسم صبّاح في خجل وهو يقول :

ما أنت عارف كل حاجة .

اتسعت ابتسامة الشيخ محمود وهو يطلب مـن صـبّاح أن يُحْكِـمَ الغطاء جيداً قبل النوم .

***

كانت فرصة للبعض للانقضاض علي المجموعـة وانتـزاع مـا ضاع ، غير أن الأخبار التي تواترت عن محمد ابن عطيه أفندي أبـو حطب بعد عودته من الجبهة في أعقاب أحداث يونيو ١٩٦٧ ، وغيره مما ورد عن تلك النكسة ، كان قد طغي علي كل بادرة لفرحة تطرق بابهم ، لم تكن الحالة التي عاد بها محمد عطيه هي الوحيدة التي أنست الجميع ما حدث للمجموعة التي توقف نشاطها وتوقفت أعمالها ، رغم ما ساد البلدة من الفوضى التي كانت تعتبر المناخ الأوفر لأعمالها ،

إلا أن ما ساد القرية من الدهشة والحزن ، خيمت علي الجميع وجعلت أي شيء آخر غير ما حدث يتوارى في الظل ، ولم تكــن المجموعــة لتنجو مما وقعت فيه القرية من وجوم وفقدان للقدرة علــي الحركــة ، فما كان أحد يتصور ما حدث ، أو الكيفية التي حــدث بهــا ، وجــوم ودهشة وذهول وعدم تصديق ، البعض يشكك في أن يكون ما حــدث ليس إلا خدعة سيتم بعدها الانقضاض والثأر ، والبعض تصور نفســه يحلم حلماً سخيفاً يجاهد في الخروج منه ، والبعض تصورها دعايــة من الأعداء لكسر الروح الداخلية ، والبعض أصابته لوثة أصــبح مــن الصعب معها التفريق بين العاقل والمجنون ، فمنهم مــن يتحــدث ولا يستطيع غيره أن يحدد ما يتحدث فيه ، ومنهم من يتحدث إلي شــخص بينما هو يعني شخصا آخر ، ومنهم من يناجي شخصا لا يراه غيره .

ليالي وأيام غادر الناس فيها النوم ، رغم توقف المجموعة عــن أعمالها ، وخروج أفرادها بين الناس في وضح النهار ، ولم يعد أحــد يخشى الخروج بعد صلاة المغرب وكأنهم في هدنة مع المجموعــة أو مع الخوف ، أو أنهم أعلنوا حالة العصيان عليهما ، أو أصابهم اليــأس والتبلد ، فأصبحت الحياة والموت سواء ، امتدت التجمعات في الــدور حتى بعد صلاة العشاء ، البعض يواسي من جاءهم خبر مــن مــات ، والبعض يسأل عن أخبار من لم يأت عنه خبر ، ولما أعلن عبد الناصر أن ما أخذ بالقوة لا يُسترد بغيرها ، أخذ الشيخ محمود حجازي يــردد

في خطبة الجمعة وفي دروس ما بعد العصر أن الحياة يجب أن تسير ، وما أعلنه عبد الناصر ما هو إلا دعوة للتناسي واستمرار الحياة ، ومــا الحياة إلا دروس وأنها لا يمكن أن تتوقف مهما كان حجم الهزيمة ، أو حجم المصيبة ، تنفس الكثيرون أملا ، بينما رأي آخرون فــي ذلــك مزيد من الغائبين والمفقودين والمشوهين ، وعلي الرغم مما يعتصــر القلوب والنفوس من مرارة وأوجاع ، إلا أن كلمــات الشــيخ محمــود حجازي - كما هي دائماً - تنزل عليهم مرهما علــي الجــروح ، مؤكداً أنه رغم قسوة ما حدث إلا أن الله سبحانه وتعالي قد جعل فــي نهاية ظلمة الليل شعاع الفجر ، وأنه علي الإنسان ألا يقنط من رحمــة الله ، ويكفي أن الله قد أذن بزوال غمة المجموعة التي أنهت حياتهــا بأيديهم أنفسهم .

وشيئا فشيئا بدأت الحياة تسير وأخذ ما حدث يتوارى إلي ما وراء طلبات الأفواه المفتوحة ، فبدأ البعض في معاودة نشــاطه والســعي علي الأرزاق ، إلا السيدة إحسان وحدها ، ارتدت السواد رغم أن أحداً لم يؤكد لها موت أحد ، لم تعد تدق الأبواب ولم تعد نيران الأفران تلفح وجهها ، أخذ جسدها في الضمور ، و وجهها يزحف منــه مــا كان فيه من تورد وصبا حافظت عليــه فظنــه الــبعض مــن نيــران الأفران . خرجت تتفحص الوجوه و تنادي سعيد ، ظن البعض بهــا الظنون ، لكنها راحت تضحك وتبحث وسط الواقفين والجالسين :

سعيد معاكم يا أولاد ؟

أشفق الجميع عليها دون أن يروي ظمأها أحد ، ظلت تدور بين الجميع ، وما من مجموعة تراها أو فرد تصادفه إلا وتتفحص و تسأل عن سعيد ، الابتسامة لا تفارق وجهها وكأن أحداً لم يتغيب ، تدور في الشوارع و الحارات ، وكأن تعبا لا يصيبها ، يحكي آخر من يأوي إلي النوم أنه رآها قبل نومه ، ويحكي أول من يستيقظ للفجر أنها كانت في طريقه ، ويؤكد العائدون إلي الدور قبيل المغرب أنها كانت علي جسر الترعة وكانت كعادتها في هذا المكان تغني وهي لا تدري بما حولها :

سعيد لبْسك الخاتم .. يا ويلي منك يا جدع

سعيد لبسك الخاتم .. ولا في البلد محكمة

ولا في البلد حاكم .. يحكم علي دا الجدع

ويقلع الخاتم .. يا ويلي منك يا جدع

سعيد لبسك الطربوش .. ولا في البلد محكمة

ولا في البلد شاويش .. يحكم علي دا الجدع

وأصبحت ترفض كل ما يحاول البعض تقديمه لها من طعـــام ، ومثلما لم يعد أحد يدري متي تنام ، لم يعد أحد أيضا يـــدري ، مـــاذا تأكل أو كيف تعيش .

في دورة من دوراتها ، وقع نظرها علي شمس الدين ، سألته : ماشفتش سعيد يا أخويا ؟

وكان الوحيد الذي جاوبها من بين من سألت :

سعيد في الجبهة يا ستي ادعي له بس إنه يرجع .

ولم تفارق البسمة وجهها ، تقدمت منه في ثبات ، وما أن وصلت إليه حتى أمسكت بجلبابه عند رقبته وراحت تصرخ بأعلى صوتها كأن هناك من مات ، أخذت تضيق الخناق عليه وتصرخ ، تجمع الناس من حولها ، حاول الجميع الإمساك بها وتخليصه ، لكن قوة جبارة كانت قد تملكتها ، الرجل يختنق ، والناس لا تستطيع الحيلولة بينهما ، حاول البعض رفعها ، غير أن يديها لم تترك الرجل ، انهد لت كتلة جسده علي الأرض ، لم تفارق يديها الجلباب ، تكاثر الناس من حولها ، انقضت علي أذنه بأسنانها ، راحت تمضغ في طبلة الأذن وكأنها تتلذذ بطعام ما ذاقت أشهي منه ، يحاولون حملها من فوقه ، وقبل أن يتمكنوا ، كانت قد غرست إصبعها في عينه اليمني فحولتها إلي بؤرة خاوية ، وبعد أن تمكنوا من رفعها ، تنفست في ارتياح وراحت تزغرد .

ضرب البعض كفا علي كف ومصمص البعض الشفاه ، بينما أصاب آخرون شرود ووجوم ، راح الجميع يتساءل ، لماذا اختارت شمس الدين بالذات ؟ أم أن حظه العاثر هو الذي وضعه أمامها في هذه اللحظة ؟ أهل علمت شيئا عن غياب ابنها الوحيد ؟ وأجاب البعض ، حتى لو كانت قد علمت شيئا ، فما علاقة هذا بذاك ؟

وأخذ البعض يتحسر علي ما كان من قوة إرادتها ورجاحـــة عقلهـــا ، بينما أكد الكثيرون أنها أعقل من في القرية .

***

ساد صمت بين أهل القرية ، من ترك الأمـــور تجـــري فـــي أعنتها ، ومن أخذه الفضول فراح خلسة يتبين حقيقـــة الأمـــر ، دعـــت البنت عظيمة كما كان يدعوها دائما زوجها السيد عبد العظيم ، دعت أبا الهول لتستوضح منه الأمر ، وحيدة في بيتها كما هي دائما منذ أن تزوجا ، فرغم إلحاح أم السيد عبد العظيم عليه ، ورغم قوة وجودهـــا في حياته ، إلا أنه لم يكن يسير علي مرادها في حالتين ، عندما أصـــر علي الزواج من عظيمة ، وهو الذي تعده أمه في مستوي اجتماعي لا ترقي إليه عظيمة ، فهو يملك من الأرض أربع قراريط مزروعة تـــدر عليه وعلي أمه ما يجعلهما يعيشان عيشة مُرضية ، بينما والد عظيمة لم يكن سوي أجير يفلح أرض الغير في نظير ما يســـد بالكـــاد رمقـــه وأولاده السبعة وزوجته التي تعمل في جني قطن الغير مع الأنفار ، أو أداء بعض الأعمال المنزلية لبعض الموسرين من أهل القرية ، كما أنه هو الذي تعلم حتى السنة الثالثة من المرحلة الإلزاميـــة ، فهـــو يقـــرأ القرآن ، ويقرأ الجرنان ، في حين لم يكن طه حسين قد أعلن بعد عـــن أن التعليم كالماء والهواء ، فكيف يرضي بواحدة مثل عظيمة ؟ غيـــر

أنه استطاع بعد جهد كبير أن يوقف والدته علي الحيـاد ، فـلا هـي وافقت ، ولا هي أصرت علي الرفض ، مادام ذلك يحقق رغبة ابنهـا الوحيد فقد ، فقد تعلمت بفطرتها أنه ما دام الحب قد ربط بين ابنها وبين عظيمة ، فإنها لن تستطيع الوقوف في طريق تيار لن تستطيع الوقـوف أمامه ، كانت قصة حب قد ربطت بينهما علي البعـد ، فمـرة واحـدة كانت بصحبة والدتها تجمع بعض عيدان القمح بعد ضم الحقل كافيـة لزرع ملامحها في وجدانه لم تفارقه ، وكأن سهم الحب طاش في هـذه اللحظة فأدمي قلبه ، وأعمي عينيه عن كل البنات سواها .

المرة الثانية التي لم يخضع فيها عبد العظيم لإلحـاح أمـه .. عندما طالت فترة انتظار حمل عظيمة ، ولا شيء يظهر علي بطنهـا ، ظلت تلح عليه طويلاً أنها تريد أن تري البيت مليء بالأبنـاء ، وهـو يؤكد أن كل شيء بيد الله وبأمره ، وما دامت هـذه مشـيئته ، فكيـف يعارض أمر الله ؟ إلا أن أمه لم تكن تكف عن المحاورة :

ولكن الله حلل للرجل واحدة واثنتين وثلاثاً وأربعاً ، فإن كـان هو الذي قدر فهو أيضاً الذي حلل . وما كان الحوار يطول حتى يعرف كيف يهرب منه ولكن حزنه كان شديداً عندما ماتت أمه قبل أن تحمـل عظيمة له الولد ، ورغم ذلك لم يفكر يوماً في ترك عظيمة ، ولا فكر في الزواج عليها .

ولم يكن أبا الهول قد خلع وجه العبط بعد ، راح يحكي ويمد يده إلي صدرها ، نزعت يده وكأنها لا تعيره انتباهـاً ، استمر في الحكي ، يعيد ويزيد ولا يريد للحديث نهاية ، بينما يده لازالت تمتد وتتطاول ، نهرته وعنفته أن يقف علي بعضه ، ادعى الولـه والهيـام خالعاً وجه العبط ، لطمته علي وجهه لطمة أطارت النجوم أمام عينيه بينما الشمس تنتصف السماء : مبقاش اللي إنت يا أهبل ، ليـك نفـس تحب ؟ !

كاد يبكي وهو يقسم أنه ليس أهبل ، ولكنه أنصح واحد فـي البلـد ، ناولته صفعة أخري علي قفاه وهي تدفعه إلي الخارج ، لكن قوة عارمة اعترته ، وكالحمار الهائج راح يدفعها إلي الداخل ويحاول احتضـانها ، بينما خرجت منها صرخة ، انشقت لها الأرض عن زوجها السيد عبد العظيم الذي أمسك به من خلف جلبابه عند قفاه وانهال عليه ضرباً وهو يدفعه إلي الداخل ، أحضر السيد عبد العظيم حبلاً احتياطياً كـان قـد احتفظ به حين أوشك حبل الجاموسة علي الاهتراء ، ربطه جيدا فـي (طوالة) الجاموسة وانهال عليه بالخيزرانة حتى أدمي جسده وكأنـه يفرغ فيه شحنة قد طال اختزانها ، بينما عظيمة تحاول منعه وتتوسـل إليه أن يدعه وشأنه ، لكنه لم يدعه إلا بعد أن كان قد انهد من التعب ، فخرج أبو الهول يجري محموماً يدعك كل جسده ويقسم أنه سيريه مثلما فعل ، وتناثرت الأخبار في بعض نواحي القرية ، وتفرق الناس بـين

من يتساءل ومن يترحم علي السيد عبد العظيم ويشفق عليه مما لا بـد سيحدث .

وفي صباح اليوم التالي كانت زرعة الذرة في حقـل السـيد عبـد العظيم قد سُويت بالأرض ، أخذ السيد عبد العظيم يسـب ويلعـن أبـا الهول ومن هم وراء أبي الهول ، ويعيد ويزيد أنه لن يستسلم لألاعيب هذا المعتوه وتلك العصابة من ورائه ، المستغلة لعبطه واستهباله ، بينما راح بعض الفلاحين من يواسي ، ومن يؤكد أنها لعنة الشيخ أبو الهول التي لا بد تصيب كل من يتعرض له بسوء .

ذهب السيد عبد العظيم إلي الشيخ أحمد يحيي ، لكنه كان قد أصابه ما أصابه ولم يعد يتكلم ، اقترح عليه البعض أن يذهب إلـي سـامبُو ، لكنه رفض مؤكداً أنه ليس إلا واحداً منهم ، اقترح عليه آخرون الذهاب إلي النقطة ، لكنه أشاح بوجهه ولم يعقب ، دار فـي القريـة رافضـاً ومؤكداً أنه لن يسكت علي ما حدث ، وسوف يأخذ حقه بيده ، معلناً أن القرية أصبحت غابة ، وإذا كان أبو الهول هو كبيرها فعليـه العـوض ومنه العوض .

***

عندما بدأ السيد نافع محاولاته اقتطاع ما اعتبره نصـيبه مـن أموال وأراض وعقارات المجموعة والتي كانت لا تزال باسـم عبـد الفتاح ، كان سامبُو أشد المعارضين له ، وأشـد المحرضـين علـي

الوقوف في وجهه ، خاصة يوم انتزع السيد نافع ما استطاع وضع اليد عليه في يوم المواجهة ، غير أنه لم يكن يظهر في هذه المواجهة بشخصه لوضعه السياسي الذي لا يسمح له أن يكون علي علاقة - في الظاهر علي الأقل - بمثل أفراد المجموعة .

غير أن السيد نافع وضع يده ضمن ما وضع يده عليه مصنع الألبان ومزرعة الدواجن والمواشي ، التي لا تستطيع الاستغناء عن الأدوية والأعلاف التي كان سامبّو يتستر وراءها لإخفاء تجارته المعروفة لدي البلدة كلها ، لكن أحدا لا يجهر بذلك أمام الآخرين ، وكانت بوادر النعمة قد بدأ ظهورها عليه ، ولم يعد يخشى من الجهر بها ساعده في ذلك ما كان قد أعلن عنه من بدء سياسة الانفتاح ، وتم تحرير ما كان قد أُخفي من أموال (تحت البلاط) ، فما كان يستطيع إخفاء ما لديه من عمال يساعدونه في المحل ، ورجال يتولون عمليات الإنزال والتفريغ والتخزين ، ورجال يتولون رص المزاج ، حتى بات لا يُنادي إلا ب سامبّو بيه ، فبدأ السيد نافع الاتصال عن طريق آخرين لعرض توريد هذه الأعلاف والأدوية إلي مواشي المزرعة ، غير أن الاتفاق يتطلب كتابة عقود وعمل تسهيلات وتخفيضات ، الأمر الذي حتم المواجهة والتعاون المباشر بين سامبُو والسيد نافع ، ولم يجد السيد نافع كثير معاناة في إقناع سامبّو بضرورة التعاون فيما بينهما ، وإن كانت العلاقة قد بدأت فاترة ويشوبها الحذر ،

إلا أنه سرعان ما توطدت وأصبح ارتباط عمل لا يخشى كلاهما منه ، ولا يجد فيه أيهما أي حرج أو تردد .

حينها كان السادات قد أعلن عن إعادة إنشاء الحزب الوطني ، وجد سامبّو فيه خطوة جديدة في طريق طموحه غير المحدود ، فكان من أوائل من انضموا إليه ، مؤيداً ومموِلاً من السيد نافع ورفاقه ، طمعاً في استمرار دعمه ومساندته لمواقف المجموعة الجديدة .

***

مات أبو الهول ، فانقسم أهل القرية حول موته كما انقسموا حول حياته ، فلم تكن جنازته تقل عن جنازة كبار أهل القرية بعد أن تولي شبابها إقامة ضريح له أصبح مزاراً للكثيرين من أهل القرية ، بل والكثيرون من القرى المجاورة ، كما أصبح له مولد يتجمع فيه كل عام العديد من الناس ، توزع فيه العطايا وتُقرأ فيه قصائد المديح ويتم تنظيف ما حول الضريح ، وسط دهشة وتعجب من تبقي علي قيد الحياة من المُسنين ، أولئك الذين يعرفون نشأة أبي الهول الأولي .

العمة نظيرة ، مقعدة في سريرها منذ سنين طويلة ، لكنها تعرف دبيب النمل في القرية ، سألتها عما تعرف عن أبي الهول : عندما وضعته سماسم زوجة حفظ بياع الفجل في مَنْزل البلد ، يومها كانت فرحتهما أكبر من فرحة عاصم بيه يوم ولد ابنه مدحت ، فانهالت

عليهما المنح والهدايا من الشيخ أحمد يحيي الذي بعث إليــه بملابــس تكفيه حتى يبلغ الحلم ، إلا أنه عندما استطاع أن يمشي علي أربع ، لم يكن يُري غير متسخ تعف عليه أسراب الدبان التي ما أن تهــف مــن فوق وجهه حتى تصنع سحابة تحجب الشمس ، وما أن بدأ يسير متعثراً علي قدمين ، حتى خلع حفظ جرساً من الأجراس المعلقة برقبة حمــاره الشهير – الذي كان يستخدمه في نقل الفجــل والجرجيــر والكُــرات ، والمعلن عن قدومه قبل مجيئه بمسافة ربع الساعة ، ووضعه في رقبة أبي الهول ، إلا أن أبا الهول تأخر في الكلام لسنوات طالت حتى قطع الجميع الأمل في قدرته عليه في أي وقت قادم ، وأصبح قفا أبا الهــول محط أيد الأولاد في اللعب في مَنْزِلِ القرية .

إلا أنه في احدي المرات عندما ضربه أحدهم ، هرب منه وتربص في منحني الطريق ووضع عوداً صغيراً من شجرة الســنط المحملــة بالشوك ، وما أن مر الولد عليها حتى كانت مجموعة لا بأس بها مــن الأشواك قد اخترقت قدمه الحافية ، وأكد لــه بعــض الأولاد أن هــذا غضب من ربنا لما فعله بأبي الهول ، وتناقل الخبر إلي الكبار الــذين ابتسموا علي أفكار الأطفال الصبيانية .

وفي مرة أخري ضربه المغاوري سيف عندما رآه يقف علي باب داره وقد غطي الدبان وجهه ، مما شعر معه بالاشمئزاز .

اختبأ أبي الهول ، وقذف كرة من نار علي سطح الــدار فاشــتعل القش المتراكم فوقه وأقراص الجلة الجافة ، ولولا ستر الله لأتي علــي الدار بأكملها ، بل والدور المجاورة لسابع دار ، وعندما علم البعض بما حدث من المغاوري ، همسوا في أذنه بأن هذا من غضب الله لما فعله بأبي الهول ، رفض كثيرون أن يكون أبو الهول ذاته وراء هذه الفعلة ، وتناقل الحديث بــين أهــل القريــة بســرعة مــا تســري الإشاعات ، بين من ابتسم ، ومن اندهش ومن طلب الرحمة من الله ، ولما مرض المغاوري وكان الجميع يعتقدون أنه المرض الأخير وقــف أبو الهول في احدي جولاته بالباب فناداه المغاوري ، اقترب أبو الهول منه ووضع يده علي رأسه ، ولم يمض ســوي يومــان حتــى كــان المغاوري يحمل فأسه متجهاً إلي الغيط ، وأصبح المغاوري نفسه أكبر المؤمنين ببركة أبي الهول .

بدأت شهرة أبي الهول في التزايد حيث تكاثر المؤمنــون ببركتــه خاصة بعد أن أخذت عيشة بيده ووضعتها علــي رأس ابنتهــا زينــب الفقيرة إلي الجمال ، والتي كانت قد وصلت إلي العشرين من عمرهــا دون أن يطرق بابها خاطب ، ولم يمر أسبوع واحد حتى كــان عبــد الرحيم قد تقدم لخطبتها ، وأشاعت عيشة الخبر بين نســاء القريــة ، حتى أصبح أبو الهول مزوج البنات ومولــد العــاقرات ، ومــداوي المرضي ، وقاضي كل الحاجات ، وأصبحت البنات يســتدعينه كلمــا

رأينه للعبث بأشيائه ، وبأشيائهن ، حتى كانـت واقعـة منتهـي ابنـة العسكري التي استدرجته إلي داخل البيت وفعلـت معـه مـا فعلتـه الكثيرات ، غير أنه ما أن تمكن منها حتى ارتفعـت حرارتـه وهـاج هياجه ولم تفلح معه كل محاولاتها الفكاك منه ، ولم يتركها إلا بعد أن أصبحت سيدة ، بعدها ، تردد بين البعض أنه مدرك لكل ما يفعل ، بل وأصبح يسعى إليه ، ومن يردد أن البنت (فايزة) وهي التي شـجعته وتمسكت به حتى النهاية ، ومن جديد أصبح أبو الهول مثار الحـديث واللغط والاختلاف .

وجد عبد الفتاح ورجاله فيه بغيتهم واكتشفوا فيه من المواهب مـا إن استخدموه لدامت لهم دولتهم ، فأصبح دخول أبي الهول لديهم ما لا يثير الشكوك ولا الريب ، مثلما يدخل أي مكان في القرية وفق ما شاء دون أن يعترضه أحد ، بل وقد أصبح محل ترحيب بـه فـي الكثيـر والكثير من الدور والغيطان والحارات .

وما أن بدأوا التعامل معه حتى تبين لهم وعيه وإدراكه لكـل مـا يدور حوله ، علقوا له مع الجرس المعلق برقبته جهازاً يسجل كل مـا يدور ، علموه كيف يستخدمه في الأوقات المناسبة والمواقف الهامـة ، وعلموه متى يذهب إليهم والأماكن التي يجب عليه التواجد فيها ، يمـر بالجهاز علي الدور والغيطان ، والكثيرون ظنـوه حجابـا ، يأخـذون الجهاز ويديرونه ويعلمون كل ما يدور في البلدة ، وبما فيـه يبـدأون

تهديدهم بما يعرفون ، وفي كثير من الحالات ، يكون الموت أهون من الفضيحة ، و مر وقت طويل قبل أن يتسرب الشك إلي البعض من أهل القرية في علاقته بالمجموعة ، غير أن الكثيرين كانوا يقاومون ويعارضون ويتهمون هذا البعض بأنهم لا يعرفون بركته ويخشون عليهم غضبه وما يمكن أن يحدث لهم من ولى الله أبا الهول ، وزاد هو من أفعاله التي تؤكد ولايته ودروشته ، وكأنه متخرج من أعتي مدارس التمثيل ، فما من حدث يدور في البلدة إلا وكان يدور في الشوارع وعلي الأبواب وفي التجمعات يردد تعليقاً عليها بطريقته العبيطة وصوته الأجش فتصير فألاً .

ورغم المُولد المقام كل عام إلا أن الناس لا زالت بين من يعتقد به ويُعد الزيارة لمُولده ، ومن يعرف دوره ويبتسم في سخرية ومرارة .

***

حَكَتْ الجدة جميلة في ساعة صفاء ذهني قالت :-

حصل سعيد علي دبلوم معهد إعداد الفنيين وأوشك علي تحقيق الحلم المؤجل الذي طال انتظاره منذ أن توفي والده وهو في عامه الأول متأثرا بمرض في صدره لم يكن له حينها من علاج ، أخذت السيدة إحسان علي نفسها عهدا ألا تدخل علي ابنها رجلا آخر رغم العوز والحاجة التي لا تخفي علي عين ، و رغم ما تملكه من

مواهب يسيل لها لُعابُ الرجال ، دارت علي البيوت في أيام الخبيز و لم يكن يستطيع أن يجاريها في مهارتها أمام الأفران واحدة في البلدة ، و أجرها .. لا يزيد علي بضعة قروش وبعض الأرغفة ، ولكن ما تتمتع به من روح مرحة خالية من أي مرارة أو حقد ، جعلت نساء القرية يدعونها قبل رجالها ، ليس لخبيزها فقط وإنما لحلاوة مجلسها ، كما كن لا يخجلن من الحديث معها وأمامها عن خباياهن ، بعدما تأكدن أن شيئا منه لا يخرج خارج جدران بيوتهن ، ورغم محاولات البعض استدراجها لمعرفة أسرار الدور ، إلا أن واحدة منهن لم تستطع استدراجها ، كانت دائما تكتفي بجملة واحدة لا تغيرها في أي من البيوت ، البيوت أسرار ، ورغم ذلك لم تكن تكف عن الحديث طوال جلستها أمام الفرن ، تداعب هذه ، وتشاكس تلك ، تتحين الفرص للحديث عن سعيد ، الوحيد الذي وهبت له حياتها ووجودها ، والوحيد الذي تتحدث عنه في غيابه ، تتخيله أمام الجميع ، الباشمهندس الذي سيفعل بالقرية ما لم يفعله الأولون ، أحد القلائل الذين يحملون اللقب ، عنترة بن شداد الذي سيضرب سبعة بسيفه فيتساقطون عن يمينه ، وسبعة آخرون يتساقطون عن يساره ليدافع عن ابنة القبيلة التي هاجمها الغزاة ، أبو زيد الهلالي الذي سيخطف ابنة السلطان علي حصانه الأبيض ، كم أحبت سير هؤلاء جميعا ، حرصت علي حضور تلك الليالي القليلة التي يأتي الشاعر فتحي فيها إلي البلدة كلما كانت

هناك ليلة من ليالي الملاح في دوار الشيخ أحمد يحيي ، ومع كل سيرة تري فيها سعيد ، هو سعيد ، ولا بد أن يكون سعيد بإذن الله ، تغيب لحظة عن الجميع ، تتخيل سعيد في الكوشة حلم حياتها ، مع أميرة أميرات البلدة ، تمنت أن يملأ عليها الدار الخاوية إلا منها ، وإذا غاب ، تنهشها الوحدة ، مرة تخيلت العروسة نادية ابنة كمال ابن الشيخ أحمد يحيي ، ومرة تتخيلها بطة ابنة عاصم بيه ، ومرة تتخيله أتي بها من البندر ، لا مانع عندها ، ولما لا ، المهم أن تكون ست الستات التي تأمر القمر بالقيام لتجلس مكانه ، وتشرد منهن فيداعبنها : أين ذهبت يا إحسان ؟ تتنبه ، تعود البسمة إلي وجهها المخضب بالحمرة من نار الفرن : أبدا .... كنت أطل طلة علي قمر حياتي ، ست الستات في حضن الباشمهندس ، يتزايد ضحكهن ومرحهن :

وداخلة عليهم الخلوة ليه يا امرأة يا حشرية ؟

فتجيب :

لأ أنا ما دخلتش عليهم ، أنا بس ببص من عُقب الباب .

وتعود إلي شرودها ، تتراقص النيران داخل الفرن ، نار صافية شفافة ، لكنها مزيج من اصفرار الذهب و حمرة دم البكارة ، يتشكل اللهب أمام عينيها ، عرائس من الحور العاريات ذوات القدود المنسابة دون حواجز أو زيادات ، ناعمات كالقشدة ، شفافات مثل الزجاج ، تتراقص مع رقصاتهن ، تنتزع ما تطاله يدها ويحدث

رنينا ، طشت ، طبق ، صينية ، تطبل وتدعو واحدة مـن الجالسـات للرقص ، تأخذ في الغناء :

يا أمّه حمامي خلط .. ويا حمام الواد سعيد
ونزلت له بمخدة .. وطلعت له بمخدة
لجيت حمامي بيتغدي .. ويا حمام الواد سعيد
وطلعت له بمجشة .. ونزلت له بمجشة
لجيت حمامي بيتعشي .. ويا حمام الواد سعيد
تقسم أخري : والنبي أنت ولية خرفانـة .. العـيش يتحـرق يا ولية

تضحك وتؤكد : ليست كل من جلست أمام الفرن خبازة ، ولا كل من جابت ولد ولّادة .

و كان مرحها قد انعكس علي سعيد ، فكثيرا ما كان يشـرد فـي جلساته ، وإذا ما ناداه واحد : سعيد .. فيرد دون تمهل أو تردد : سعيد بوجودك ، فكان ذلك ما ساعده أن يصادق أبناء أعيان البلـدة ، بـل كانوا حريصين علي مصادقته ، فضلا عن مساعدته للكثيرين منهم في المذاكرة ، وكما كانوا حريصين هم علي ذلك ، لم يكن هو أقل حرصا منهم ، حتى أنه عندما لم يستطع دخول كلية الهندسة مع صديقه الأول محمد عطية ، قرر أن يدخل أقرب دراسة إليها ، فكانت معهد إعـداد الفنيين ، يومها قال لصديقه :

أتظن أنك تستطيع الهروب مني (وراك وراك) يا صاحبي ، وإن شاء الله بعد التخرج سنفتتح ورشة معاً ، تكون أنت فيها المصمم وأكون أنا المنفذ .

غير أن كلية الضباط الاحتياطيين كانت بانتظارهما معاً قبيل ما حدث في يونيو ١٩٦٧ وبعدها .... لم يعد سعيد . البعض قال أنه من المفقودين ، والبعض قال أنه من المأسورين ، وهمس عدد من العائدين بأنه دفن في رمال سيناء .

***

لم يكن الليل قد انتصف بعد حتى كان باب السيد عبد العظيم يدق بعنف ويهتز كأنه زلزال ، ارتعبت عظيمة ، وارتعد السيد عبد العظيم ، لكنه كان يعلم من الطارق فلم يرد ، أسرع بوضع كل ما طالته يده وراء الباب حتى يحول بين الطارق وبين فتحه ، لكنه فُوجيء بمن ينزلون عليه من سطوح الدار ، هدد وثار ، طلب النجدة بأعلى صوته ، صرخت عظيمة وولولت ، لكنهما كانا يصرخان في صحراء ما لها من أطراف ، وفي لحظات ، ورغم المقاومة ، استطاعوا ربط ذراعيه بالحبال إلي الخلف ، بينما عظيمة تتوسل وتبكي ، لكزها أحدهم بقدمه فانبطحت علي الأرض ، انفتح الباب وإنساق السيد عبد العظيم إلي حيث لا يدري معصوب العينين ، وهناك

تم ربط قدميه دون أن تفك يديه ، وأخذ أحدهم يتلذذ بالضرب والسباب بأقطع الشتائم ، بينما الآخرون يشاهدون بين متأهـب ، ومسـتمتع ، وبينما هو يصرخ ويستغيث ، لمح عبد الفتاح يدخل حيث انتبه الجميـع وتوقف الضرب ، سأل عبد الفتاح عما فعل السيد عبد العظيم ، فهمس أحدهم في أذنه بصوت اخترق أذن السيد عبد العظيم : منذ فترة ونحن نراقب هذا الرجل ، وصبرنا عليه كثيراً ، حتى تم ضبطه ليلـة أمـس وهو يتربص بك في غيط الذرة الذي يملكه علي الطريق البحري لقتلك عند ذهابك إلي جماعة أم خنان ، فكر أن يصرخ فيه أن هؤلاء كاذبون ، لكن المرارة تعتصر وجدانه ، تراجع في اللحظة الأخيـرة ، ربمـا يفهم من كلامه استعطافاً ، كبر في نفسه أن يستعطف أحداً منهم ، حتى لو كان عبد الفتاح نفسه ، نظر عبد الفتاح إلي الرجل شـذراً ، بينمـا طلب من أحدهم أن يتبعه في الحجرة المجاورة ، فكر أن يشيعه ببصقة يُحملُها كل عذاباته ، تذكر أنه مستلق علـي ظهـره مكتـوف اليـدين والساقين ، خشي أن ترتد البصقة علي وجهه هـو ، اسـتأنف الآخـر الضرب حتى كان قد فقد الإحساس بالألم ، و لما لم يكن السيد عبـد العظيم بقادر علي الوقوف أو السير ، فقد حملوه علي حمار حتى تركوه بالقرب من داره ، راح يتحامل حتى وصل البيت الذي مكث فيه طوال أسبوع كامل لم ير فيه شمس الله ، بينما كان أبو الهول يواصل مهمـة الإعلام والإعلان عما حدث .

وطوال أسبوع آخر لم يكف السيد عبد العظيم عن الكلام والسب في أبي الهول ومن وراء أبي الهول ، بينما ينصرف الجميع عنه ما أن يبدأ في الكلام ، كان الخوف قد ملأ القلوب ، البعض يري أن السيد عبد العظيم قد ذهب عقله ، والبعض كان لا يزال يعتقد في كرامات أبي الهول ، لم يترك مجلساً ولا أحداً يجلس بمفرده إلا وراح يتحدث إليه ، والكل يتلفت من حوله ، حتى كان اليوم الأخير في الأسبوع الثاني . فما أن انتصف الليل حتى اهتز باب السيد عبد العظيم بعنف انخلع له قلب عظيمة ، بينما ارتعدت ساقاه وانكمش في نفسه ، فلم يكن قد استرد عافيته بعد ، حتى وإن كان ، فماذا يستطيع أمام هؤلاء الذين انتزعت الرحمة من قلوبهم ، وماذا يستطيع أن يفعل وحيدا ، انحبست أنفاسه وارتعدت مفاصله ، حاول أن يتماسك أمام امرأته ، لكن قواه خانته ، راح يستحضر بعض الآيات ، لكنه لم يستطع ، لحظة وكان الباب قد انخلع من الحائط بعنف أربعة رجال قد بارك الله في أجسامهم ، وعلم فيما بعد أنه كانت هناك مجموعة من الخفر يقفون بالباب ، بينما اندفع سبعة داخل البيت ، ومن ورائهم أبالهول يخب في جلبابه الفضفاض الممزق ، اندفع أحدهم بسيل من السباب المتدافع ، والوعيد لمن أراد أن يجعل من نفسه بطلاً ولا يريد حفظ لسانه ، ألم يكفيك ما ذقت من قبل ؟ بينما كان آخران يوثقانه بالحبال وهو يصرخ ويستغيث بالنائمين، لكنهم كانوا جميعا قد سكنوا القبور ، راح آخران يوثقان عظيمة التي ارتفع

صراخها فملأ الدنيا قبل أن يضع أحدهم يده علي فمها فكتم أنفاسـها ، وما أن انتهي الجميع من توثيق السيد عبد العظيم وعظيمة حتـى كـان آخر قد تقدم من عظيمة فاتحاً ما بين ساقيها ، توجه إلي أبـي الهـول قائلاً : تفضل يا عريس .

اندفع أبو الهول يخلع جلبابه وسرواله ، انكب علـي عظيمـة التي لم تكن تملك القدرة علي الحركة ، والنيران تشتعل في أمعاء السيد عبد العظيم وفي كل وجوده ، والجميع يتابع في استمتاع ورغبـة ، في تلك اللحظة ، توسل السيد عبد العظيم إلـي عزرائيـل أن يمـارس عمله ، لكنه أبي وأشاح بوجهه ، انسحبت الدنيا الواسـعة بـلا حـدود متشرنقة في دُملٍ تحت الجلد ، يرفع الحرارة ويصرخ بـالألم القـابض يعتصر الوجود ويمحو الرؤيا ، تنحصر الدنيا داخل جلده قنبلة غيـر منزوعة الفتيل ، يتحول الوجود إلي بركان باحث عن نقطة للانفجـار ، غير أن الغطاء سميك فيبدو خامدا هامدا مستكينا ، غمت الدنيا مـن عينيه إلا من مناظر الجحيم ، تحجرت الدموع في عينيه ، رغـم مـا يعتصره من مرارة وحنق ، تمني أن يغيب عن الوعي ، فلا يسـتطيع رؤية ما يري ، غير أن تعليقاتهم واستهزائهم يعيدانه إلـي الوجـود ، يزرعان جسده في الأرض فلا يستطيع فكاكا أو حراكا ، تمني لـو لـم تلده أمه ، انطفأ الشرار المتطاير من عينيه ، فلم يعد يصيب أحـدا ،

وما أن انتهي أبا الهول ، حتى نزع نفسه ولملم خلقانه منتشيا مزهوا ، رغم عدم قدرته الوقوف علي قدميه، بينما سخر أحدهم وهو يقول :
خلصت يا عريس ؟ مبروك عليك .
حاول آخر أن يندفع نحو عظيمة لكن من بدا كبيرهم نهره فـامتنع علي الفور ، طلب كبيرهم حل وثاق عظيمة ، وطلب منهـا أن تتـولي بنفسها حل وثاق زوجها .

***

لم يكن شمس الدين من بين أفراد المجموعة المقربين للسـيد ، إلا أن مقتله علي هذه الصورة أثار شجنا وشكوكا في نفسه ، وجعله أكثر المتسائلين ، أكانت حقا المصادفة ، أم أنه كان بالفعـل مـن تريـده ؟ ولماذا اختارته هو دون غيره ؟ .
ولم يجد مهربا من الشكوك والظنون التي تفجر رأسه إلا بالهروب إلي المسجد الذي أصبح ملاذه كلما ضاق به التفكير وانسـدت أمامـه الأبواب ، ليس للتضرع إلي الله فقط ، وإنما في الجلوس إلـي الشـيخ محمود حجازي الذي أصبح صديقه الأول بعد ما حدث من انشقاق في علاقته بالشيخ أحمد يحيي ، ألقي بأثقاله وظنونه علـي كاهـل الشـيخ محمود حجازي الذي راح يطمئنه ويهدئ روعه ، مؤكـدا أن السـيدة إحسان ليس لها من ناقة ولا جمل في القرية ، وأن المجموعة لم تصبها

بشيء ، فلابد أنها لم تكن تريده هو بالتحديد ، ولكنها أعمار ، أمَنَ الله عليها بالصبر وساق إليها خبرا عن ابنها ، (مسكينة) لم يكن لها من حطام الدنيا سواه ، و بالكاد ، كان الله سيأذن لها بجني ثمار سـنينها ، إلا أن لله حكمته فيما يفعل ، وله في خلقه شئون .

اقتحم عبد الفتاح المجلس ، أصابت السيد دهشة لمرآه ، لم يعتـد رؤيته في هذا المكان من قبل ، راح يعنف السيد بثورة ألجمته عـن الرد :

أهذه هي المحافظة علي الأمانة التي حمتلكَ إياها ؟ ألم يكفك مـا صنعته بما تركته أمانة في عنقك ؟ لقـد شـتت شـمل المجموعـة ، وحصلت لنفسك علي مـا لـم يكن لك أن تـحصل عـليه ، وهـا هو من تـبقي مـن المجموعـة تـتركه نهـباً للضالـين ؟ و كـذلك ....

إلا أن السيد لم يعد يحتمل المزيد من الصبر فانفجر فـي ثـورة أطاحت بقدرة عبد الفتاح علي مواصلة ثورته :

يكفي ما كان منك ومن رفيق أعمالك ، أتظن أني أظـل صـامتاً متفرجاً حتى الآن أيضا ؟

أولاً : فالمجموعة هي التي قضي أفرادها واحداً علي الآخـر ، وفي حضورك ، بل كنت أنت الذي قضي عليها واحداً بعد الآخر .

ثانياً : ما اقتطعته لنفسي فهو حقي وأنت أول من يعرف ذلك .

ثالثاً : فالأمانة التي تتكلم عنها هي التي حتمت علي أن أفعل ما فعلت ، وما أردت به غير إعادة الأمور إلي صوابها ، فالأمانة أمام الله هي التي يجب أن أحافظ عليها قبل الأمانة التي تدعي أنها لك .

رابعاً : ماذا كنت تظنني أستطيع أن أفعل لهذا ال.. شمس (بتاعك) ؟ ألم يكن هو الذي أدي إلي أفشل عملية قمتم بها أنت وصديق عمرك الذي رغم كل ما كان بينكما من أحقاد وضغائن لم تستطع ردعه كما فعلت مع غيره كثيرين ممن عارضوك ؟ ثم ماذا كنت تريدني أن أفعل ؟ أكنت تنتظر أن أقوم عليه حارساً وأبعد عنه السيدة المسكينة التي لا يستطيع أحد سؤالها عما تفعل ؟ ! حتى لو فعلت أكثر من ذلك ، يكفي ما هي فيه وما حدث لها .

وعندما وجد الشيخ محمود حجازي انفعالاً وذهولا علي وجه السيد ظنه تأثر بما آل إليه حال السيدة إحسان ، استغفر الله وسأله الهداية والصبر لها مستطرداً :

مسكينة فعلاً الست إحسان ، إن خسارتها تفوق خسارة أي فرد آخر في القرية ، رحم الله ابنها إن كان من الشهداء ، وألهمها الصبر ، أو أعاده إليها إن كان من المفقودين أو الأسري .

تنبه السيد علي حديث الشيخ محمود حجازي ، تنفس عميقا وكأنه لم يسمع مما قال شيئا ، طلب منه أن يركز في خطبة الجمعة القادمة في الهجوم علي أعمال المجموعة ويوضح للناس أن هذه الأعمال قد

توقفت تماما ويبشرهم بعدم السماح بعودتها مرة ثانية ، وأن الناس قد أصبحوا من الآن في أمان ولم يعد هناك ما يهدد أمنهم واطمئنانهم .

صمت الشيخ محمود حجازي قليلا وراح يتأمل في حديث السيد نافع .. ماذا يعني هذا ؟ لقد نصّبَ من نفسه وصيا علي البلدة ! والناس لا تنسي ولا يمكن أن تنسي أنه واحد من أفراد المجموعة ، فماذا يعني طلبه هذا ، ألا يعتبر تنصيبه لنفسه محددا لما يجب أن يدور في البلدة استمرار للمجموعة ولتحكمها في مصائر القرية ؟ وماذا يعني طلبه هذا ؟ أهو الذي يحدد موضوع الخطبة التي عليه أن يلقيها ؟ إذا كنت قد قبلت مصادقته ، فليس لأكثر من أنه فرد أراد التوبة والهداية ، وهذا واجبي وما أبحث عنه وأسعى إليه ، لكن أن يظن أن المجموعة لازالت موجودة ، حتى لو كان كلامه غير ذلك ، فالأمر لا بد له من وقفة .

ألجم الموقف الشيخ محمود حجازي عن الرد ، لجأ إلي الشيخ أحمد يحيي وأخبره بما حدث ، تنهد الشيخ أحمد يحيي وقال :

يبدو أن المجموعة لم تتوقف أعمالها ، وإن كان قد فارق بعض أفرادها ، ولقد رأي السيد نفسه المسئول لا عن المجموعة فقط ولكن عن البلدة بأكملها ، نجّي الله القرية منهم أجمعين . لم يجد الشيخ محمود حجازي في كلام الشيخ أحمد يحيي ما يروي ظمأه ، ظل يفكر في الأمر حتى يوم الجمعة . ركز خطبته علي الصبر وأفضال الصبر

والصابرين ، وسأل الله إزاحة الغُمة عن البلدة وأن يعيد الغائبين إلـــي ذويهم ، وأن من لم يعد من أرض المعارك فإما أنه شهيد ، والشـــهيد مع النبيين والصديقين ، وحسن أؤلئك رفيقا ، وإما أنه في طريقه بإذن الله تعالي إلي أحضان أهله سالما معافى .. وطلـــب إلـــي النـــاس أن يصطفوا لصلاة الغائب .

لم ينتظر السيد خروج المصلين من المسجد بعد الصـــلاة ، توجـــه إلي الشيخ محمود حجازي غاضبا ومؤنبا ، ويذكره بما طلب منه ومـــا كان يجب أن تكونه خطبة الجمعة ، وكأنه يوبخ أحـــد أتباعـــه ، لـــم يستسلم الشيخ لهذا الغضب ورد عليه بالثورة نفسها :

يبدو أنك نسيت من هو الشيخ محمود حجازي ، وأنه أنا الذي عليه أن يحدد موضوع الخطبة وليس أحد آخر ، وأنه لا يعتمد في ذلـــك إلا علي ما يراه يمس اهتمام الناس واحتياجهم ، يحدوه في ذلك شرع الله وحده الذي لا يعلو علي كلمته كلمة .

ولم يكن السيد ليفقد الأمل سريعا ، انتظر علي مضض وقلق حتى الجمعة التالية ، ركز الشيخ محمود حجازي خطبته علي ضرورة سيادة شرع الله الذي غيبه المسؤلون عن البلدة وغابوا عنه فكان ما حدث من نكسة في يونيو ١٩٦٧ ، وأن إزالة آثار ما حدث لن يكون إلا بالعودة إليه بضمير وبنية صادقة .

أدار الشيخ محمود حجازي ناظريه في الجالسين بالمسجد في الجماعات التالية بحثا عن السيد ، لم يجده ، ورغم أن القلق قد بدأ يساوره مما يمكن أن يفعله السيد ، إلا أنه لم يفكر في وصل ما انقطع .

***

وما أن استقر الأمر بأبي الهول مع المجموعة حتى أصبح عليه الكثير من المهام التي أصبح يؤديها دون شك من الكثيرين ، ربما لازدياد الثقة في ولايته وتصرفه بإلهام فوقي ، وربما لاستسلام الكثيرين لمن يأخذ بيدهم طوعاً وسماحة ، دون عناء التفكير ومشقة البحث والتمحيص ، و رغم مفاتحته للكثيرين بتأتأته المألوفة صراحة في العمل مع المجموعة ، حتى استطاع بالفعل أن يجد استجابة البعض منهم ، إلا أن أحداً لم يفاتح أحداً في ما هو فيه ، ظاناً بنفسه أنه الوحيد الذي يعمل لصالحها دون الآخرين ، وقد برع أبو الهول في تلك المهمة نجاحاً لم تكن المجموعة تحلم به ولا تظنه ، إلا أنه أيضاً لولا مساندتها له في الكثير من المواقف التي كان من الممكن أن تهدم ما تم بناؤه ، لما كان له كل هذا النجاح ، فكان أبو الهول ينتحي بأحد الشباب ، وكان وقوفه في أي مكان أو مع أي فرد شيء عادي ، فيحدثه بأهمية العمل مع المجموعة ، كسباً لرضاها وتجنباً لما يمكن أن

يصيبه وأسرته وعائلته منها ، كما أن ذلك سيتيح له العمـل مسـتقبلا بمزرعة الدواجن أو المواشي أو مصنع الألبان ، كما يمكنه من بيـع أمه لألبان جاموستهم أو بقرتهم ، أو ما تبقي من بيض لديهم ، أو شراء سلالات جديدة من الدواجن ، ومقابل ماذا ؟ مقابل الإخبـار عـن أي تحرك يمكن أن يحدث من بعض الأفراد ضد المجموعة ، و سـوف لا يكلفه ذلك بالطبع أي شيء ، أو يتطلب منه مجهود إضافي ، أو تفرغ ، إذ يمكنه أن يفعل ذلك وهو مستمر في حياته العادية ، ودون أن يشعر أو يعلم به أحد ، وسوف يكون هو الوسيط الذي يأخذ منـه مـا يريـد توصيله ، وإبلاغه بما يكون عليه عمله ، فلا صلة له بالمجموعة مـن قريب أو بعيد ، فما يمكن أن يضره فيه ذلك ؟ وعلي الرغم من عـدم وضوح الكثير من كلمات أبي الهول ، إلا أن الأمر كـان يـدير رأس الكثيرين ، وما كان يجد له صدي لدي كثير من الشباب.

استطاع أبو الهول أن يجند العديد بهذه الطريقة ، وأن يزرع فـي كل بيت واحدا علي الأقل - إن لم يكن أكثر - حتى كان في بعـض الأحيان يأتيه الواحد منهم بأخبار ، ويأتيه آخر من نفس البيت بأخبـار أخري ، فكانت الأخبار تتضارب في كثير من الأحيان ، ولم يكن عليه سوي توصيلها للمجموعة ، وهي التي تتـولي الفـرز والتمحـيص ، وترك ما لا يفيد . غير أن الأمر لم يكن يعدم وجود الـبعض ممـن يسخرون بكلام أبي الهول ، ويعتبرونه (هلفطـة) وتخـاريف مـن

معتوه ، وهؤلاء لم يكن منهم كثير خوف ، أما من كان يظـن بـأبي الهول السوء ، ويبدأ التفكير فيما يلعبه مـن دور لـدي المجموعـة ، فأولئك لهم شأن آخر ، إذ أنهم يصبحون بذلك خطراً لا تحمد عقباه ، فقد يحركون الساكن ، ويكشفون المستور ، فما كان منـه إلا أن يبلـغ المجموعة التي تري ضرورة تهذيب أظافر مثل هذا حتـى لا تجـرح أحداً ، ولا يسلم الأمر من لطع بعض الكفوف علي قفـا أبـي الهـول والتأكيد عليه بدقة الاختيار قبل الإقدام ، مع بعض السـباب للمرحـوم حفظ والده والسيدة سماسم والدته .

فعندما حادث محمد ابن عطيه أفندي مدرس الإلزامي ، الذي كـان يدرس في السنة الأخيرة من كلية الهندسة ، استدرجه محمد حتى سمع منه كل اسطوانته ، أمسك محمد بجلباب أبي الهول عند قفاه وحـاول رفعه عالياً :

ولد .. إنت إيه حكايتك بالضبط ؟ إنت شغال إيـه ، ولا بتعمـل إيه ، ولا علاقتك بالناس دول إيه ؟ علي فكرة أنا شـاكك فيـك مـن زمان ، وأكيد إنت شغال مع شلة الحرامية دول ، إن شاء الله هتكـون أخرتكم مهببة ، وكل شيء وله آخر .

عاد أبو الهول إلي سابق (استعباطه) وراح يتهته كعادته الظاهرية ، حتى لم يستطع محمد أن يحصل منه علي شيء يرجى ، فمنحه بعض

الأكف علي قفاه الذي تورم من كثرة ما لاقي ، وأخـذ فـي الجـري رمحاً .

محمد كان لا يزال علي قوته البدنية والذهنية لم يـزل ، وكـان عطيه أفندي لم يزل لديه ما يعطيه للآخرين ، ففي المدرسة كان يتحين الأوقات ليجمع التلاميذ ليمارسوا الأنشطة الرياضية ، ومن تحت يديـه تخرج أبطال برزوا فيما بعد في لعبات عديدة ، كان أحدهم محمد ابنـه الذي حصل علي كأس المحافظة في تنس الطاولة لأكثر من عام ، وفي آخر العام ، كانت حصص الألعاب والفسح الصغيرة والكبيرة محجوزة لعطيه أفندي يراجع مع الأولاد دروس كل المواد ، علي الرغم من عدم مسئوليته عن ذلك ، فقد كان يعتبر جميع الأولاد بالمدرسة أولاده ، فهو يعرفهم واحداً واحداً ويعـرف آبـاءهم وأعمـامهم وأخـوالهم وكـل عائلاتهم ، وكان ذلك بالطبع محل احترام وتقدير من الجميـع ، حتـى كان الولد شوقي قد وصل إلي الصف الرابع وهو لا يسـتطيع الكتابـة والقراءة ، علي الرغم من تفوقه ولمعان اسمه كأبرز من يلقي الأناشيد ويقوم بالأدوار الأساسية في كل التمثيليات التي تقوم عليها حفلات نهاية العام التي غالبا ما كان يحضرها المحـافظ شخصـياً ، إلا أن عطيـه أفندي أصر علي أن يصنع من شوقي تلميذاً ناجحاً في دراسته كما هـو في الأنشطة ، أولاه عناية خاصة ، ولم ينته العام الدراسي حتى كـان بالفعل من المنافسين لأوائل المدرسة ، ولم يكن دور عطيـه أفنـدي

يتوقف عند حدود المدرسة ، بل لم يكن يعلم أن أحد التلاميذ لا يستطيع دفع مصاريف المدرسة ، إلا ويبادر بدفعها ، فما كـان يعلـم أن أحـد الأولاد لا يستطيع شراء ملابـس الأنشـطة الرياضـية إلا ويبـادر بشرائها ، غير أن الأمر تجاوز المقبول من الأعمال ، حتى أن السيد ة أم محمد اختلفت معه كثيراً وسـاقت عليـه الكثيـرين ، مؤكـدة أن (ما يحتاجه البيت يحرم علي الجامع) ، لكنه لم يكن يسمع لها ، وكأن شيئاً داخلياً يسوقه لما هو فيه ، مؤكداً أنها قصيرة النظر ، وأن مـا يفعله سوف لا يعلمون فائدته إلا فيما بعد ، إلا أن الأمر كان قـد فـاق الحد بالنسبة لها ، فقد تعرض أبو العلا لضائقة مالية ولم يكن أمامـه سوي عرض بعض من قراريطه للمجموعة في موقع كانت المجموعة تحلم به كثيراً ، عرض عليه ما يريده من مال ، غير أن أبو العلا أشار إلي أنه ربما لا يتمكن من رد هذا المبلغ في الوقت القريب ، لكن عطيه أفندي أصر مؤكداً أنه ليس في حاجة إلي هذا المبلغ في الوقت الحالي ، حتى لو استدعي الأمر عدم رده نهائياً ، المهم ألا يفـرط فـي الأرض للمجموعة ، ولم يكن المبلغ متوافراً لدي عطيه أفندي ، لكنه استطاع تدبيره ، وقد عرضه ذلك بالطبع لغضب المجموعة وثورتها عليه من جانب وغضب السيدة أم محمد من جانب آخر ، حاولت المجموعـة بأكثر من حيلة منع هذه المساعدة من عطيه أفندي وإتمام عملية البيع ، غير أن إصرار عطيه أفندي ورغبة أبو العلا الدفينة في عـدم إتمـام

البيع أفشلا محاولات المجموعة واختزنت لعطيه أفنـدي مـا لا بـد سيوجعه .

***

ولم يكن ما حدث من أمر السيدة إحسان لينسي الجميع مرارة عدم القدرة علي الوقوف إلي جانب عطيه أفندي ، شعر البعض بـالمرارة والعجز حينما لم يستطيعوا الوقوف إلي جانبه في محنته ، بينما كانـت بعض البيوت لا تملك ترف التفكير فيما حدث لعطية أفنـدي وأبنـه ، وكان يكفيها ما بها من مآسي وأحزان ، حتى هو نفسه ، لم يعد عطية أفندي الذي يبحث عن خدمة الآخرين وتوعيتهم ، والتعليق علـي مـا يدور من أحداث ، وما يستوجب عمله لمواجهتها ، فلم يعد يهمه مـن الأمر سوي الحالة التي أصبح عليها ابنه ، تسارعت لديه الأيام والليالي في مرور متدافع تعرض شريط الأماني والأمنيات ، فلم يكـد محمـد يتخرج من كلية الهندسة حتى جاءت الأحداث متسارعة وكأن ابنه كان علي موعد معها ، لطالما انتظر عطيه أفندي هذا اليوم الذي ينادي فيه بكريه (ب الباش مهندس) منذ أن كان واحداً من بين العدد المحـدود ممن دخلوا هذه الكلية من القرية كلها ، حتى أن محمد ذاته اعتـرض علي والده لإصراره علي مناداته ب الباش مهنـدس أمـام أصـدقائه

وزملائه ، مؤكداً أنه لم يزل مجرد مشروع مهندس لم يتحقق بعد ، غير أن عطيه أفندي كان دائماً يؤكد أنه سيتحقق بإذن الله .

وما أن تخرج محمد في الكلية حتى كانت بوادر الصراع قد بدأت تلوح في الأفق ، وكانت الأنباء قد بدأت تتواتر عن الحشود الإسرائيلية المزعومة علي الحدود السورية ، ولم يكن بطل القومية العربية ليقف مكتوف اليدين أمام أي تهديد لدولة شقيقة ، حتى لو كان قد سبق بيننا وبينها انفصال ، فتم التحاق محمد بكلية الضباط الاحتياطيين علي غير إرادته ، لأداء الخدمة العسكرية مع من تخرجوا من الكليات المختلفة ، في محاولة من القيادة لتطوير الأداء بالقوات المسلحة ، غير أن الأحداث كانت أسرع من التخطيط ، فاضطرت القيادة لسحب هؤلاء الجامعيين من الكلية قبل أن يكتمل تدريبهم ، ودفعت بهم ليكونوا الطليعة المثقفة التي ستدخل أرض فلسطين المحررة ، وقد هون عليه دخول كلية الضباط حبه وإيمانه بالثورة ورجالها والذي كان مثار خلاف دائم معي ، لم يكن هذا الخلاف ليُغضبني في يوم من الأيام ، فكم كانت سعادتي عندما أراه يبادلني النقاش ، كم كنت أتمني أن أخرج مغلوباً منه ، كنت أدرك أنه يشعر بالدهشة ، كان الأمر يبدو له غريباً ، إذ كيف يدخل المرء صراعاً – حتى لو كان نقاشاً – ويفرح إن خرج منه مهزوماً ؟ لم تكن تدرك حينها معني أن يشعر المرء بنمو ثمرته ، كيف يحب أن يتأملها

تترعرع وتزهر ، بل كم يتمني أن يستظل بأوراقها وفروعها ، لكني أدرك أنك لن تدرك ذلك إلا حين يكون لك ثمر ، وكم طالت ساعات النقاش بيننا، كنتُ دائم التأكيد لك أن الأوضاع التي يسير عليها رجال الثورة لا بد ستؤدي إلي حدوث الانهيار، وكنتُ دائم التأكيد بأن هـذا الانهيار وشيك لا محالة ، غير أنك لم تكن تصدق ، كنـت تتهمنـي بالرجعية وأن معاصرتي للعهد البائد قبل الثورة قد أثرت علي وعلي حكمي علي الأشياء ، وأن الثورة ما جاءت إلا لتطهيـر الأرض مـن المستعمر في كل البلاد المحتلة ، وعلي رأسها فلسطين السـليبة التـي سترجع علي أيدي رجال الثورة بالتحديد لأنهم هم الذين عانوا مـرارة الانكسار في ١٩٤٨ ، ومن حينها وهم مصممون علي تحرير وتطهير فلسطين ، حتى ولو كان الذي يقف وراء إسرائيل أكبر القوي في العالم فهم قادرون عليهم وعلي من هم أكبر منهم ، لم تزل كلمـات يسـري صداها في أذني ، وكم كنت أتمني أن تكون علـي صـواب ، ومـرة أخري أؤكد لك أن المرء لا يتمني أن يتفوق عليه أحد - أيا كـان - إلا ابنه . لكن تُري ما الذي يدور الآن بداخلك بعد أن أصبح يخـيم الصمت عليك والعجز عن الكلام والحركة ؟ تري مـا الـذي كـان سيحدث له لو أن زميلك هذا لم يتعرف عليك ويأتي بك إلينا ؟ لقـد أجاب زميلك عن بعض الأسئلة، لكن الكثير والكثير منها لم يزل يزلزل كياني .

صدرت الأوامر إليهم في يوم السادس من يونيو بالانسحاب ، في اليوم التالي لبدء القتال ، القتال ؟! لقد أكد زميلك أن قتالاً لم يقع ، فما رفع واحد منهم مدفعاً !! وما أدرك واحد منهم ما الذي حدث ويحدث ، بل شعروا بأنهم في حلم ، بل كابوس ، وكابوس ضاغط قاهر مرعب ، وما أن صدرت أوامر الانسحاب حتى اندفع الجميع في شتي الاتجاهات وكأنهم سرب من العصافير علي فرع شجرة قذف واحد فيه طوبة ففزعت العصافير وانطلقت في كل اتجاه ، انتشروا جميعاً في فضاء سيناء العارية إلا من السماء وطائرات العدو التي راحت تحصد من سرب العصافير ما يطوله مدي النيران ، لا بد أن القيادة لم تضع في اعتبارها احتمال الانسحاب ، بل إن كلمة الانسحاب لم تكن ضمن القاموس في تلك الأيام ، إذ كيف يفكر في الانسحاب من يخطط لقذف إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل في البحر ، لقد كان الجميع يهيئ نفسه لتناول وجبة الغداء في تل أبيب فكيف له أن يفكر في وضع خطة للانسحاب ؟! .

اختبأ البعض في الحفر الرملية أياماً وليالي ، منهم من مات بالجروح ، ومنهم من مات بالعطش ، ومنهم من تاه في الصحراء حتى وقع في قبضة العدو ، استطاع محمد أن يسير ثلاث ليال متواصلة فوق رمال سيناء ، فلم يكن بمقدوره السير في النهار ، ولأنه لم يكن يعلم خريطة السير لسيناء ، فكان سيره علي غير هدي ، يعتصره الخوف

ويمزقه الغيظ ويهده الإجهاد والتعب ، حتى عثرت عليه سيارة أحـــد الضباط المصريين في نهاية الليلة الثالثة مختبئاً في احدي الحفر الرملية ممدداً أقرب إلي الموت منه إلي الحياة ، فاقداً القدرة علـــي الكـــلام أو الحركة ، تنزف الدماء من ساقه التي ظلت مرتبطة بباقي جسده بالجلد فقط ، متي تمت إصابتها ؟ لا أحد يعلم ، كيف تمت ؟ لا أحد يعلم ، كم استطاع السير بهذه الإصابة في هذه الصحراء ؟ لا أحد يعلم ، هل كان مدركا بما أصابه ؟ الله أعلم .

حمله الضابط وجنديان كانا يرافقانه ، حاولوا التعرف عليه ، لم يجدوا معه أيا من حاجاته ، حاولوا عمل بعض الإســـعافات الأوليـــة ، خلع الضابط سترته وراح يربط الجرح بكل ما أوتي من قوة ، وكـــان الألم والغيظ يعتصر وجهه والعرق ، بينما انطلقت السيارة بهـــم فـــي سباق مع الزمن ، هروباً من العدو الذي يمكن أن يلحق بهـــم فـــي أي لحظة وفي أي مكان ، وهروباً مما يمكن أن يحدث من مضاعفات لمن يحملون ، حتى استطاعوا الوصول إلي الإسماعيلية التي لم تكـــن قـــد أخليت بعد من سكانها ، أودعوه إحدى المستشفيات ، وهناك لم يكـــن أمامهم غير بتر الساق ، ولم يكن هناك فرصة للبقاء للاستشفاء ، فكان حتما أن يتم خروجه من المستشفي لإخلاء مكان لغيره أشد منه حاجـــة للمكان ، وكانت إسرائيل قد وافقت علي قرار مجلس الأمن الذي سعت

إليه مصر بوقف القتال ، بعد أن كان قد تحقق لها ما أرادت من احتلال كامل سيناء للمرة الثانية في عهد رجال الثورة المباركة .

لكن الجموع الغفيرة تناست كل ما حدث وخرجت هـادرة باكيـة حين أعلن الزعيم التنحي تـرفض أن يتركهـا ، متمسـكة بـالزعيم والقائد .

إلا أن عطيه أفندي وقع في دوامة ما لها من قـرار ، دارت بـه الأرض دورات متلاحقة أطاحت بصوابه ، أينتهي الأمـر بـالتنحي وعفا الله عما سلف ؟! أهذا كل ما في الأمر ؟! وكيف يمر ما حدث وكأن شيئاً لم يكن ؟! اعتصره الغيظ والحنق ، أيمر كل شيء بدون حساب ؟ وماذا عن ابنه ؟ من يستطيع إعادته إلي حاله ؟ تمني لـو يحمل سكيناً ويندفع وسط الجموع الزاحفة ويغرسه في بطن أي مسئول يواجهه انتقاماً وتشفيا ، لو يقف وسط الجموع الهادرة الزاحفة صارخاً ومنبهاً ، غير أنه لم يكن سوي ورقة في مواجهة زوبعة عاتية حملتهـا وألقت بها حتى فركتها الأقدام ، وماذا يجـدي الصـراخ الآن ؟ أهـل استطاعت المناقشات أن تثني ابنه عما كان يعتقد ؟ فكر عطيه أفنـدي الذي علّمَ الأجيال وعُرف وسط الجميع برجاحة العقل ، فكـر مليـاً ، تصور أن ابنه أصابته سيارة في طريق مهجور وأحدثت به ما حـدث له ، أيكون عليه أن يمسك بقائد السيارة ويشبعه ضرباً حتى يحدث بـه مثل ما فعله بابنه ، أم يكون عليه أن يجبره أن يحمل المصـاب إلـي

أقرب مستشفي لإنقاذه أولاً ثم بعد ذلك يكون الحساب ، وحتى إذا هرب بعد ذلك ، أو توفاه الله ، فأين سيهرب ؟ أليس الحساب والعقاب فـي انتظاره حتى لو هرب إلي هناك ، أيظنون أن شيئاً يمكن أن يـتم بـلا حساب ؟ حتى لو لم يتم حسابهم في الدنيا ، فالحســاب - حتمـا - في انتظارهم في الآخرة .

***

لمدة شهر تقريباً لم ير أحد السيد عبد العظيم خارج بيته ، بعدها كان قد بدأ الخروج دون أن يسمع أحد له صوتاً وكأنما أصابه الخرس ، كادت الأرض تبور من إهماله لها وعدم عنايته ، انعـدمت الـروح ، فصار لا يمكث في الأرض مثلما كان ، زيارات قصيرة ، وما أن يرفع الفأس ، حتى يصيبه الوهن ، يجلس في موضعه منكس الرأس ويروح في تفكير في لا شيء ، لا يرد سلاماً ، ولا يلقي سلاماً علـي أحـد ، يتسابق الجميع علي سقي الأرض بعدما يســمح لهـم بـذلك ، لكنــه صامت ، يناوشه المغاوري ، يلقي إليــه ظــل ابتســامة ، يشاكســه النويهي ، ينكس رأسه ولا يرد ، يتودد إليه أبو العلا ، تلمع الـدموع في عينيه ، ولا يتكلم ، إن ادعي أحدهم بأن الدور له ، يستســلم و لا ينازعه ، ولا يتكلم ، بدأ القلق يساورهم عليه ، غيــر أن أحــدا لا يستطيع معرفة ما به ، وحده يحمل الجبال فوق كتفيــه ، ولا يريــد أن

يعاونه أحد ، يئن وحده ، ولا يريد أن يسمعه أحد ، يظل جالساً بالحقل حتى قبيل المغرب ، تتنازعه الأفكار ، تُري ماذا يحدث الآن ؟ لكنه يهز رأسه وكأن أحداً يحادثه ، وماذا يمكن أن يحدث بعد الذي حدث ؟ فليحدث ما يحدث ، لم يعد هناك ما يمكن الخوف عليه ، بل أصبحت كل الأمور سواء ، يتحامل قبيل المغرب للعودة ، يدخل علي عظيمة دون سلام أو كلام ، تعلم قدر ما يحمله من هموم علي كتفيه ، لم تشأ أن تفاتحه ، أثرت الصمت رغم يقينها بأن ليس لها دور فيما حدث ، شاغبتها الظنون أن يكون قد أصابه المرض الذي أصاب الشيخ أحمد يحيي والكثيرين من القرية ، لا تملك إلا أن تلعن أبا الهول ومن مع أبي الهول والساعة التي ساقت فيها الأقدار أبا الهول ، فقط كان عليها عدم الاحتكاك بأبي الهول ، ألم تسمع ما حدث منه مع الأخريات ؟ ألا تعلم أنها وحيدة في البيت ، لا ولد ولا أنيس ؟ لو كان الله رزقها بالولد ، لما كانت اليوم في هذا الموقف الذي لا تدري ما الذي وضعها فيه ، لو أن عبد العظيم استمع لكلام أمه وتزوج من أخري ؟ لقد كانت علي استعداد أن تظل في خدمته وخدمتها ، وربما كانت قد اتخذت منها أختاً تؤنس بها وحدتها ، فأين كانت ستذهب لو أنها طلبت الطلاق ، وما كانت تقدم له رداً للجميل غير هذا ، و بذلك ستكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد ، رد الجميل ، والحفاظ علي المأوي والعشرة ، فقط لو يتكلم ، ربما كان في الكلام تخفيفاً

مما يحمل ويقاسى ، لكنها ، فقط وفي صمت تضع أمامه ما وجد من لقيمات في صمت هي الأخرى ، وكأن الصمت أصبح هو اللغة المفهومة بينهما ، يتناول لقيمات دون أن يستطعم شيئاً ، وبالصمت ترفع عظيمة المتبقي ، أو ترفع ما وضعته دون نقصان ، لم يفكر أن يسألها إن كانت قد تناولت طعامها من عدمه ، الأيام تمر مكرورة لا جديد فيها ولا طعم لها ، الليل مثل النهار ، والنهار مثل الليل ،الأفكار تتنازعه ، والغل يمزقه ، واليأس يهد قواه ، لو أن الله رزقه بالولد !! أكان اليوم عوناً وقوة تحطم هذا الطغيان ، أم تراه كان سيصبح هو الآخر ضحية جديدة لهم ؟ وما الذي كان سيحدث لي لو أنهم أصابوه بسوء ، أتراي كنت سأتحمل أن أراهم يصيبونه بمكروه وأظل على ظهر الدنيا ؟ أليس الله حكيماً أن حجبه عني حتى لا يزيد آلامي وعذابي ؟ أليس في منعه رحمة مثلما في عطائه نعمة ؟ .

وما كان السيد عبد العظيم يصل لهذه القناعة في كل مرة حتى تهدأ نفسه ويشعر ببعض الراحة ، لكن مثل السيد عبد العظيم في هذه القرية لم تكتب لهم الراحة علي أرضها ، وكأنهم علي موعد مع العذاب الأبدي المتجدد ، فما كانوا يخرجون من حفرة حتى يجدوا أنفسهم في ما هي أعمق وأشد انحداراً منها ، فما كاد الجرح يلتئم ، ويبدأ في مصالحة الحياة والعودة إلي زراعته حتى كانت الواقعة قد وقعت علي قلبه ، ولم يكن قد مضي من الشهور إلا ثلاثة ، حتى قطعت عظيمة

الصمت الذي دام طويلاً ، تلكأت وتهتهت وكأنها مقدمة علي الولــوج في بئر سحيقة ، نظر إليها بذهول وترقب منتظراً ما تخبئه المقادير من مفاجآت ، ألا زال هناك مفاجآت ، هتفت أعماقه دون أن ينطــق وإن كان الفضول ينهشه ، هات ما عندك ، فلم يعد ما يمكن أن يكون أكثــر مما كان ، فكل شيء دونه هين ، ولم يكن يدري أن الأقدار تدخر له ما لم يكن يخطر له علي بال ، وأن ما كان أهون مما سيكون ، ترددت وهي تبكي وتنظر إلي الأرض في ذلة وانكسار ، ألقت بقنبلة الــدخان في وجهه فاسودت الدنيا أمام عينيه وحجبت الرؤيا والرؤية ، فلم يعــد يراها ، ولم يعد يري ما كان يراه ، أخبرته بانقطاع الــدورة عنهــا للشهر الثاني ، شل الذهول السيد عبد العظيم وهو يسأل شبه مُغيــب : يعني إيه ؟؟!!! .

دارت الدنيا دورتها سريعاً ، تابعتها دورة و دورة ، لم يعد يعــرف أهي التي تدور أم هو الذي يدور ، حقيقة أنه لم يكن متيقن مــن الــذي يدور بذهنه ، غير أنه سمع كثيراً من أمه رحمها الله ، عن ذلك الــذي يحدث إذا انقطعت الدورة ، كم تمني ذلك من قبل ، ولكن أتراه حــدث الآن بالفعل ، أم أن الكوابيس تطارده وتصر علي كتم أنفاسه وإزهــاق روحه ؟ غير أن عظيمة لم تتمالك نفسها وكأنها تجهــز علــي البقيــة الباقية له من قوة تحل وكأنها تهوي بمطرقة ثقيلة علي أم رأسه وهــي تخبره بأنها .... حامل !!!!!!

***

تناسي عطيه أفندي الأمر و لم يشأ أن يستسلم لليأس وضياع الحلم الذي عاش من أجله وهو يري ابنه البكري قد صار عاجزاً عن الحركة عاجزاً عن الكلام ، ورغم أن كتلة همومه كانت أكبر من كتلة جسده المتضخمة ، إلا أن ما كان يبدو من حركة عطيه أفندي كانت تفوق حركة شاب في نحول عبد الحليم حافظ ، راح بجروحه يدور علي المستشفيات ، غير أن ما تبقي لهذه المستشفيات من وقت وإمكانيات لم يكن يمكنها من فعل شيء للحالة التي وصل إليها ابنه ، طرق أبواب الأطباء في عياداتهم ، البعض أكد له أنه من الممكن أن يعاود ابنه الكلام مرة أخري عن طريق عملية جراحية ، ولكن للأسف أن مثل هذه العملية لا تتم في بلادنا ، وأن خير بلد تتم فيها هي اليابان ، فكم أصبحت متقدمة في هذه العمليات بالذات ، ولم يكن عطيه أفندي في قلق علي ساق ابنه المبتورة قدر قلقه علي عدم النطق ، فقد تأكد له أن الأجهزة التعويضية يمكن أن تمكن ابنه من السير ، حتى لو كان السير معيباً ، لكنه لا يعوق حركة ممارسته للهندسة ، فحينها سيظل رغم كل شيء الباش مهندس ، ولكن كيف يكون الباش مهندس فاقداً للنطق ؟ ذلك ما لا يحتمله عطيه أفندي ، أو يحتمل التفكير فيه ، وانحصر كل تفكيره في كيفية السفر بابنه إلي اليابان ، طرق أبواب المكاتب الحكومية مؤكداً أن ابنه أحد أبطال يونيو – وكم كان يشعر بالخجل

وهو يردد ذلك ، لكن ذلك ما كان يتصور أن به سيحصل علي موافقة بالسفر أو حتى المعاونة فيه – غير أن عبد الناصر كان لازال يؤكد أن المعركة لم تنته بعد ، وأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ، فمـــا كان للدولة أن تجري وراء هذا الترف الذي يسعى إليه عطيـــه أفنـــدي وكأنه لا يشعر بما تمر به البلاد من ظرف تاريخي ، أو أنه لا يـــدري أن لكل معركة ضحاياها ، كما أن لكل ثورة ضـــحاياها . ولـــم يجـــد عطيه أفندي أمامه سوي السعي للسفر بابنه علي نفقته الخاصة ، سعي بنفسه للمجموعة ليبيعهم المتبقي له مـــن قـــراريط متاخمـــة لـــبعض أرضهم ، لكنهم لم يكونوا قد تناسوا ما كان منه أو من ابنه (الفلحوس أبو لسان) ، وها هي الفرصة جاءتهم دون سعي ، رفضـــوا بـــالطبع الشراء ، فعلي الرغم من أن نشاطهم قد توقف نسبيا ، إلا أن ذلك لـــم يمنع أن الفرصة قد جاءتهم من حيث لا يدرون ، رغم إدراكهم أن قوي عطية أفندي كانت قد انهارت ، ولم يعد منه خوف عليهم ، ولكن يبدو أن الحقد لم يكن قد فارقهم ، وراح أبو الهول يدور دورته محذراً من شراء أرض عطيه أفندي الذي لم يجد أمامه سوي البحث لدي الآخرين عما يمكن به أن يسافر بابنه إلي اليابان ، غير أن أحوال أهل القرية لم تكن بأفضل من أحواله ، وكم كان الألم والمرارة يخيمان عليـــه وهـــو يتابع ويعلم ما يدور به أبو الهول ، الذي أخذ يجوب القريـــة كعادتـــه ولكن بصورة لفتت نظر الكثيرين لسعيه الدءوب والجرس المعلق فـــي

رقبته يشخال في جلبة تغلب علي صوته غير المفهوم والـــذي تعـــودوا عليه حتى صار مفهوماً ، راح يردد .. عبد الفتاح حي حـــي ، عبـــد الفتاح حي حي ، فأخذ البعض كلامه تخريفاً من تخاريفه المعتـــادة ، ولكن البعض الآخر تأكد من حياة عبد الفتاح وبطلان الإشاعة القائلـــة بموته ، لاعتقادهم وثقتهم في معرفة أبي الهـــول لمـــا لا يعرفونـــه ، وإطلاعه علي ما لا يستطيعون التكهن به .

***

كانت البعثة الطبية قد وصلت بعد طول إلحاح من طبيب الوحدة الصحية ، بدأت بأخذ عينات من بعض المرضي وأرسلتها علي الفـــور إلي مستشفي المركز التي لم تجد لـــديها المصـــل الكـــافي والفعـــال ، فأرسلتها بدورها إلي مستشفي القصر العيني بالقاهرة ، أكدت العينـــات وجود فيرس كان قد انتشر في المنطقة في الفترة الأخيرة إلا أن العلاج لم يكن قد تم إنتاجه بعد ، فتطلب الأمر ضرورة استيراده من فرنســـا علي وجه التحديد ، التي سبقت دولاً كثيرة في إعداده وتصـــديره إلـــي المنطقة ، استغرقت المسألة بعض الوقت حتى وصـــل الـــدواء كـــان المرض فيها قد انتشر حتى لم تكن كميات العلاج المستوردة بكافيـــة ، وكانت الأموال المتبقية لا تكفي لاستيراد المزيد منها ، فتحولت القرية إلي قرية خرساء ، حيث لم يكن يسمع فيها غير الهمهمات وأصـــوات

الطيور والحيوانات مما استدعي الكثير من التعليقات والنكـات التـي سادت في القرى المجاورة وفي مستشفي المركز ، وهو نفس مـا أدي إلي تأجيل محاكمة السيد نافع ونظر قضية مذبحة الموت التـي هـزت القرية ، وهو أيضا الذي أعطي - أيضاً - السيد نـافع الفرصـة للخروج والتحرك بحرية داخل القرية بحثاً عما اعتبره حقه الذي أصبح بين يدي أبناء عبد الفتاح وأتباعه ، و لم يكن الأمر هينـا أن يخـرج السيد نافع لمواجهة الناس بعد كل الذي كان منهم قبل المذبحة ، والكل بين من يريد الانتقام ، ومن يريد استرداد حقه الذي سلبته المجموعة ، ومن يريد تطهير البلد منهم حتى لا يتكرر ما حدث ، وأصـبح علـي السيد نافع أن يثبت حقه في ما امتلكه عبد الفتاح بالاتفاق والوفاق غيـر المعلن بين أفراد المجموعة .

و لم تكـن المسـألة هينـة ، إذ لا أوراق مكتوبـة ، ولا عقـود مبرمة ، فضلا عن سعي ورثة الآخرين في الحصول علي أنصبتهم ، ومن قبلهم أبناء عبد الفتاح ذاته الذين كانوا أكثر المتشبثين بالإرث من غيرهم ، و القليل منهم كان يعرف الحقيقة ، والكثيـرين ظنـوا أن السيد نافع ما أراد إلا اغتصاب حق لم يكن له في يوم من الأيام ، وقد يرجع ذلك لأن عبد الفتاح لم يكن يُطلع أحداً علي الكثير من تصـرفاته - خاصة التصرفات المالية - وقد يعود علي صغر سـن الكثيـرين

منهم فلم يعيشوا ما حدث ولم تنقل الصورة إليهم صحيحة . فكــان عليه مواجهة عدة جهات وأن يحارب علي عدة جبهات .

استغرقت العملية أكثر من سبع سنوات بين المحاكم والوســطاء والأصدقاء وأهل الخير .

إلا أن بادرة للأمل لم تبدوا في الأفق ، ومع تعالي الهجوم والرغبة في الانتقام كان لا بد من موقف حدده السيد نافع وأصر عليه ، لا مفر من استخدام القوة ، وليكن ما يكون ، فقد ضاعت الهيبة وضاع الحلــم وضاع العمر ، فما الذي يُبقي عليه ، بالطبع هــي مغــامرة محفوفــة بالكثير من المخاطر وقد تؤلب عليه كل ما كان ، ويحمل وزر الجميع وحده ويصبح ضحية للجميع وحاملاً لأخطائهم ، إلا أنهــا قــد تــنجح ويسترد بها ما ضاع لدى عبد الفتاح .

كان قد استطاع تكوين مجموعة جديدة تدين لــه هــو بــالولاء ، وتعمد ألا يكون من بينهم من له أي صلة ب عبد الفتاح ، استرجع تلك الليالي التي كانت ودبر الأمر مع رفاقه وتحددت ليلة الفعــل ، تســلح رجال وحمل الحديد آخرون ، وفي ليلة مقمرة تحددت المســاحة التــي قدر السيد نافع أنها نصيبه من التركة ، لم يشأ أن يتجاوزهــا حتــى لا تتسع الخلافات مع ورثة باقي المجموعة فيكفيه ما هو متوقع من ورثة عبد الفتاح وحده ، تم وضع الحديد حول المساحة المحددة في أســرع وقت ممكن ، وقبل الفجر كانت المحاريث قد بدأت عملها فــي حــرث

الأرض وقبل طلوع الشمس كانت بذور الذرة قد وضعت ، ومـــا أن علت الشمس عن الأرض وقبل أن تنتصف السماء كان رجال كثيرون من ورثة عبد الفتاح ومن استطاعوا جمعهم قد وفدوا إلي المنطقة وقــد امتلأت قلوبهم حقدا وأفكارهم عزما وأيديهم أسلحة من شتي الأنــواع ، ما بين السكاكين والشوم و البنادق ذات الروحين ، وكان أغلــبهم مــن بين من لم يصبهم ما أصاب القرية ، وكأنهم ليسوا منها ، فلم يعــانوا مرارة ما أخذ من البعض ، أو ما أصاب آخرون من عنت وظلــم ، أو يلمسوا ما حدث للكثيرين مثل السيد عبد العظيم أو الســيدة إحســان ، وتجاهلوا ما حدث للشيخ أحمد يحيي والشيخ محمــود الحســيني ، الذين لا يمكن الادعاء بعدم السماع عنهما وما حدث بهمــا ، فكــان أمضي ما يحملون من أسلحة ، ألسنتهم ، فكــانوا كــالأعور وســط العميان ، أو كالألدغ وسط الخرسان ، تصدي لهم السيد نــافع منبهــا علي أتباعه بعدم التعرض إلا بإشارة منه ، ولأول مرة يرتفع صــوته مهددا ومتوعدا من يقترب من الأرض ، فلو كان يطمع فيما ليس له لكان قد استولي علي الأرض جميعها ، ولكنه ما أخذ إلا ما لــه فيهــا بحق العدل ، انبري أحدهم متهكما :

أي عدل ذلك الذي تتحدث عنه يا من كنت نكرة المجموعة ؟!!

تماسك السيد نافع نفسه ولم يشأ أن يُستدرج وراح يردد :

هذا حقي الذي استلبه ولي أمركم ومن جعلكم حبيسي بيوتكم لـــم يجرؤ واحد منكم أن يخرج من بيته أو حتـــى يـــتلفظ بكلمـــة ، الآن أصبح عبد الفتاح هو صاحب الحق يا أجـــبن الجبنـــاء ؟! رد عليـــه كبيرهم :

أنحن الجبناء وأنت الذي لم يكن باستطاعتك التفـــوه بكلمـــة فـــي حضرة سيدك ؟ .

لم يكن سيدي يا من كان يسوقكم كقطيع الغنم وأنتم خامدون في بيوتكم لا يجرؤ واحد منكم علي الخروج حتى للصلاة ، ألم يكن هـــو الـــذي قربني منه وفضلني علي أقرب أقربائه ؟ ! عرفاناً منه بما كنت أســـديه إليه من نصح لم يتبين حكمته إلا بعد أن تأكد من خداع الآخرين ؟ لقـــد كنت الناصح الأمين ، ولو أنني كنت كغيري ممن كانوا يحيطون بـــه لاستسلمت أو فررت كما فعل الآخرون ، ولكـــن الحكمـــة والخبـــرة والوفاء كانت ما فعلت ، وما كان سكوتي وصبري إلا احتراماً للكبير بيننا وعلي هدي من اتفاق وعهد رجال ، ذلك ما تعلمناه وما يجب أن يسود ، احترام الكبير للصغير واحترام العهود والمواثيق ، ذلك مـــا ضاع وما نسيتموه .

- أليس من الغريب أنك أنت الذي يتحدث الآن عن القيم والعهود والمواثيق ، ومنذ القريب كنت أحد أفراد العصابة التي روعت

البلد بأكمله واستوليتم علي ما ليس لكم بقوة الخـوف وقهـر البطش والقرصنة ؟! .

- لقد كنا نسعى لتكوين أكبر مزرعة في المنطقة ، كنا نحلم لكم وكنا نعمل من أجلكم ، ألم يكن ذلك يعود علينا وعلي الجميـع بالخير ، ليس لنا فقط ، ثم دلني علي واحد فقيـر أو محتـاج أخذنا منه شيء ، وأنتم تعلمون جميعا أننا ما عملنا إلا علـي أولئك الذين كانت قد توحشت أملاكهم ولم يسمحوا لواحدٍ منا حتى بالحصول علي فحل بصل .
- إنك بهذا تعترف بما فعلتموه إذن ؟
- وهل أنكرت يوما ما فعلناه ؟ ويوم تنعقد المحكمة سـأعترف بكل شيء بكل وضوح وصراحة .
- ومعني هذا أيضا أن ما فعلته الليلة يدخل في صميم ما سـبق وفعلتموه بالقرية ، وأن ما أخذته الليلة يعتبر حق علي غيـر أساس .
- بل هو علي أساس وأساس متين مبين للحق ، فهو أولا بدايـة لرجوع الحقوق الضائعة ، وأول ما يبحث عنـه الإنسـان أن يعيد حقه هو أولا ، وإلا ما استطاع أن يعيد حقا لأحد غيره ، وأعدكم أن أعيد إلي كل ذي حق حقه .

- إنها الأنانية الطافحة في كل تصرفاتك ، أيعني هذا أنك ستعيد ما اغتصبتموه ممن رحلوا كذلك ؟ أليست هذه حقوقهم ؟
- سأسعى ما وسعني السعي علي انتزاع حقوقهم من مغتصبيها ، سأشهد بذلك أمام المحكمة وأمام الله بحقهم .
- إنما هي الأنانية التي تسلطت عليك ، فحصلت علي ما رأيته يخصك ، وما تقول إلا الحقد علي من كان له عليك الفضل ، والآن ترتد عن ما فعل وما لم تكن تستطيعه في حياته .
- بل هو الحق الذي تهربون من الاعتراف به وتحبون أن تظلوا علي الدوام معصوبي العين تركنون إلي الدعة والخنوع باحثين دوما عمن يسوقكم لا من يقودكم .
- أمغتصب وقليل الحياء وتدعي الوفاء والمبادئ وأنت ما زلت تطعن في من قربك إليه و ..
- سيمر وقت طويل قبل أن تدركوا ما أقول وأفعل و................
- وكيف نأمن أو نثق لمن يغير جلده بين عشية وضحاها ؟
- ليس من الشجاعة أن أستمر علي الخطأ إن اكتشفت أنه خطأ ، ولكن الشجاعة أن أعلن أنني أخطأت وأبدأ في علاج الخطأ .
- الآن تقول أن عملك معه كان خطأ ، ولماذا لم تصلح هذا الخطأ وهو موجود ؟

- عندما يعيش الإنسان وسط مكان كريه الرائحة ، لا يستطيع إدراك تلك الرائحة ، ولكن ما أن يبتعد قليلا ثم يعود إليه يدرك تلك الرائحة ، وما كنت سوي فرد وسط مجموعة ، وأعترف بنصيبي من الخطأ ، أما وقد أصبحت أملك الفعل ، فأتحمل عاقبته كلها ، فامنحوني الوقت والمعونة وسأصلح كل ما انكسر ، وأقّوم كل ما اعوج ، فأنتم تعلمون أن القرار دائما في النهاية لمن هو القائد ، أي قائد ، وما يقوله الآخرون إلا مجرد إضاءة إن سُمح لهم بالقول ، أو إن صدقوا القول .
- إبليس يعظ يا رجال .
- احفظ أدبك وتعلم كيفية الحديث مع الكبير .
- أنا أعلم الأدب جيدا ، ولا أعتدي علي حرمات الموتى من قبل أن ....

و هنا اندفع أحد أتباع عبد الفتاح بعصيّ غليظا هوي بها علي رأس السيد نافع الذي ترنح قليلا ، و علي أثرها اندفع أكثر من واحد من أتباع السيد نافع نحو أتباع عبد الفتاح ، لكنه سرعان ما تماسك واستعاد زمام الأمور ، وأدار المعركة الحامية التي بدأت بين الجانبين ، سالت الدماء علي الأرض وتطوحت الأجساد هنا وهناك بين مصاب في ذراعه ومن عجز عن الوقوف ومن بترت ساقه حتى أن الحصر المبدئي قد حدد الخسائر بخمسة عشر جريحا ومصابا

وقتيلان بين أتباع عبد الفتاح في مقابل ستة مصابين بين رجال السـيد نافع وبدون قتلي ، وبعد أن كان قد مر نحو أربـع سـاعات ، كانـت قوات البوليس قد بدأت في الوصول بأعداد فاقت عدد المتعاركين حتـى استطاعت السيطرة علي الموقف وفرقت بين المتحاربين وقـد كُدِسـتْ عربات الشرطة بالمقبوض عليهم وأخذت سيارات الإسـعاف تصـرخ أثناء تسارعها نحو المستشفي الميرى الوحيد بالمركز التابع له القرية .

***

لم يكن الليل قد انتصف بعد ، عندما دق باب عطيه أفندي الذي خرج إليهم بالفانلة والكلسون ، بعد أن كان قد نظر في ساعته ظانـاً أن الفجر قد حان ، فوجئ عطيه أفندي بأربعة أفراد ملثمين وخلفهم عـدد آخر يحملون عصياً غليظة وبنادق وسكاكين ويسألون عن ابنه محمد ، ولم ينتظروا جواباً ، حيث كان الأربعة قد أحاطوا بـه بينمـا انسـل الآخرون من حواليه وكأنهم يعرفون خبايا المنزل ، حيث لم يكن وقـت طويل قد مر حتى عاد الجميع وبأيديهم محمد كالفرخـة المـذعورة ، يحاول الخلاص ، ويحاول إزاحة أثار النوم من عينيه ، و بينمـا هـم يجرونه إلي الخارج ، راح عطيـه أفنـدي يحـاول الاستفسـار ، ولا مجيب ، أخذ يهذي بالكلمات والسباب ، مثل (البلد فيها نقطة) ، فرد

عليه أحدهم من بعيد وهم يختفون ، فيها نقطة ، عليها نقطـــة ، ابنـــك هيرجعلك يا عطيه أفندي ، زيارة بسيطة بس وقوام هيرجع .

في الطريق تم وضع شال أحد الرجال علي عين محمد فلم يعد يري إلي أين يسيرون به ، وإلي أي مخابئهم يسوقونه ، ولم ير إلا ووجد نفسه داخل جدران وأمامه بعض رجال المجموعة ممن يعرفهم ، حيث بادره أحدهم .

ألنت (الفلحوس) المفتح أبو لسان ؟

وفقد محمد السيطرة علي نفسه ثائراً ومهدداً :

أنا عايز أعرف أنا هنا ليه ، وعايزين مني إيه ؟ انتو فاهمين إن البلـــد مفيهاش نقطة ؟ أنا هاود يكو في داهية ؟

فعاجله أحدهم بضربة كف علي وجهه أفقدته توازنه وهو يصيح بوقاحة ويتوعد :

الداهية دي إنت اللي هتروحها إن متعلمتش الأدب ومشيت في حالك ، وعموماً الأدب فضلوه علي العلم ، وإن كنت ناقص أدب إحنـــا عندنا مدرسة للأدب ، وقبل أن يفيق من هول الضربة الأولـــي كـــان الرجل قد عاجله بالثانية علي الجانب الأخر من وجهه ، ثم صاح فـــي بعض معاونيه الملتفين حول محمد :

دخلوه المدرسة ، وحصة واحدة كفاية عليه .

وجد محمد نفسه كما يري النائم أنه محمـــول علـــي أيـــدي الرجال إلي أن قذفوا به في حجرة أخري ، وبينما ربطَ قدميه رجـــلان وهو يقاوم مقاومة مستميتة ، حيث لم يكن قد أفاق بعد مـــن الدوخـــة التي اعترته مما ناله ، راح أحدهم يضربه ضربات مبرحة علي قدميـــه وهو يصرخ ، وراحت صرخاته تخفت شيئاً فشيئاً حتى خبت تمامـــا ولم يعد بمقدوره التأوه ، وبدا كمن غاب عن الوعي ، كم مـــن الوقـــت مر ؟ لم يعد يدري ، ولكنه تنبه علي كثير من الماء ينخبط بوجهه فانتبه مفزوعاً ، طلبوا منه الوقوف ، حاول الوقوف لكن قدماه لم تحمـــلاه ، ولم يقو علي الوقوف عليهما ، عاجله أحدهم :

ما تقف يا روح أمك ، وأخذ أحدهم يتوعده إن هو نطـــق بشيء ، أو كان قد سمع عن شيء اسمه المجموعة في عمـــره كلـــه ، وكيف أنهم يستطيعون المجيء به حتى لو كان في بطن أمـــه ، لكـــن محمد نظر إليه في انكسار ولم يرد ، أعادوا ربط عينيه ، ودارت بـــه الدنيا دورتها ، نظر حواليه حيث وجد نفسه علي مبعدة مـــن بيـــتهم ، بينما كانت تباريح الفجر قد بدأت في الأفق ، جاهد كثيراً متحاملاً علي نفسه حتى استطاع أن يدق باب بيته ، انفتح الباب كما لو أنهـــم كـــانوا يقفون خلف الباب ، اندفعت الست أم محمد تأخذه في حضـــنها وهـــي تبكي ، بينما لم يستطع هو مقاومة البكاء ، كما لم يبـــك مـــن قبـــل ، لحظات ، حاول فيها عطيه أفندي أن يستفسر عما حدث ، لكن محمد لم

ينطق بشيء ، ولم تفلح توسلات والده في إخراجه من صـــمته ، ولم تفلح توسلات أم محمد لزوجها في إثنائه عن الذهاب إلي النقطة في الصباح.

وازدادت ثورة عطيه أفندي عندما لم يفلح في إقناع ابنه محمد في الذهاب معه .

***

لم يكن أحد في النقطة بعد ، غير أمباشي وأحد الخفــر ، عنـــدما حمل عطيه أفندي كتلة جسده المترهلة ، وكتلـــة ثورتـــه المتوهجـــة. وعندما علم الأمباشي أن الشكوى التي جاء عطيه أفندي من المجموعة أصابته حالة من الشلل والصمت ، ولم يفكر في فتح أي محضر إلي أن يأتي البيه ضابط النقطة في التاسعة تقريباً ، الأمر الذي زاد من ثـــورة عطيه أفندي ، غير أنه لم يجد مفراً من الانتظار ، بينما بدأ توافد الخفر والعساكر علي النقطة ، أخذ البعض في تحيته بالاحترام الواجب ، يرد تحية ويتجاهل أخريات ، راح بعض الخفر يتهامسون حول الشكوى التي جاء من أجلها عطيه أفندي ، فما يلبث الواحد منهم يســـمع حتـــى ينحي رأسه بعيداً ويتجنب الحديث مع عطيه أفندي ، رأي نفسه منبوذاً

داخل النقطة ، وكأنه ليس عطية أفندي الذي لم يكن أحدهم يصادفه في الطريق حتى يبدي من التحيات والاحترامات ما كان هو يخجل منه ، ولم يغادره العناد الصعيدي ، ظل منتظراً حتى سمع طرقعة كعب البندقية لأحد الخفراء في الأرض فعلم بوصول ضابط النقطة الذي يعرفه تمام المعرفة ، وفي نحو العاشرة اقتادوه إلي الضابط الذي بدأه بالتحية والترحيب ، مما شجع عطيه أفندي وبث في نفسه بعض الأمل ، سأل الضابط عطيه أفندي عن الموضوع ، واستمع إليه في إنصات ودون مقاطعة ، حتى شعر أن عطيه أفندي قد فرغ من شكواه ، فتساءل الضابط في برود :

ومن أدراك يا عطيه أفندي أنهم أفراد المجموعة ، أنت تعلم أنه منذ أن جئت أنا إلي هنا وقد تم السيطرة علي هؤلاء الأفراد وتم تحديد نشاطهم تماماً ، أهل تسمع الآن عن نشاط لهم ؟

فتعجب عطيه أفندي وظن في نفسه إما أنه لا يعيش في هذه البلدة أو أن هذا الضابط لا يعيش فيها ، لكنه تمالك ، ولم يشأ أن يفقد الود الذي أبداه الضابط ، أو أن يُفقِده صبره :

وهو فيه حد غيرهم يقدر يعمل كده ؟

فرد الضابط ولم يزل يحتفظ بهدوئه :

من الممكن إن حد حب يستغل سمعة المجموعـة ويعمـل شيء لحسابه ، إنت عارف الناس بتستغل أي إشـاعة تطلـع وتـبص تلاقيها نار وقادت في البلد .

فسارعه عطيه أفندي :

لكن أنا متأكد إن اللي عمل كده هم أفراد المجموعة ، والبلـد كلها عارفة كده

وما أن سمع الضابط ذلك حتى كان صبره قد بدأ ينفد فعاجله :

عندك مين يشهد علي كده ؟

يشهد إيه بس يا حضرة الضابط ، وأنا بقول لسـيادتك أنهـم أخذوه عند منتصف الليل ، وعادوا به قبل الفجر فمن يكون قد شاهد ؟ وحتى لو شاهد فمن يستطيع الشهادة ؟

– حيرتني يا عطيه أفندي ، ماذا أستطيع عمله إذن ؟ تحـب أفـتح محضر ؟ بس علي فكرة ، نصيحتي أنه سوف لا يفيد ، لأنه في هـذه الحالة ، لا بد من دليل ، فهل معك دليل ؟ ولا بـد مـن المواجهـة ، وبالطبع سوف لا يعترف أحد علي نفسه وسينكرون ، بفرض أنهم هـم الفاعلون كما تدعي ، فماذا سيكون العمل حينها ؟

لم يرق لعطيه أفندي كلمة (تدعي) ، إذن هو مدعي ، بـل ربما انقلب الأمر وأصبح هو الجاني والمتجني علـي أفـراد أبريـاء ، وربما طالبوا بتعويض عن الاتهام الباطل ، واسترسل فـي التفكيـر حتى رأي نفسه وقد أخذه هؤلاء الأفراد مثلما فعلوا مع ابنـه ، ومـاذا يمكن أن يفعلوا به ، وتصور كل هذا الجسد وقد تمـدد علـي الأرض بين هؤلاء الكفرة ، وضربه أحدهم ، كيف يستطيع أن يواجه تلامذتـه في المدرسة ، بل كيف يستطيع أن يواجه نفسه ؟

ملأت نفسه الحسرة والانكسار .

ولم يتذكر أن يلقي التحية علي الضابط وهو يغادر ، بينما في ذهـول راح يتمتم :

حسبي الله ونعم الوكيل ، حسبي الله ونعم الوكيل .

وسار إلي بيته مطأطأ الرأس ، ولم يسمع مـن ألقـي عليـه التحية ، بينما كان أبو الهول يدور علي الدور - بوجه العبط والعتـه - ليعلن ما حدث لمحمد ابن عطيه ليلة أمس ، وكأنه يعلم ما يـدور وراء الأبواب ، وكأن المجموعة قد أرادت أن يكون مـا حـدث درس للجميع ، و ليزداد البعض اعتقاداً بـأن أبـا الهـول مكشـوف عنـه الحجاب .

***

استمرت التحقيقات بسراي النيابة حتى ساعة متـأخرة مـن الليـل وانتقل بعض أفرادها إلي المستشفي الميرى لأخذ أقـوال المصـابين ، وفي صباح اليوم التالي أفرجـت النيابـة عـن الجميـع بالضـمانات المختلفة ، علي أن يبقي الحال علي ما هو عليـه ، وعلـي المتضـرر اللجوء للقضاء .

أسقط في أيدي أتباع عبد الفتاح وأصابتهم الدهشة والغيظ وراحـوا يلوكون ما كان عليهم عمله وما يجب أن يعملوه ، وضرورة اسـتعادة تلك الأرض المنتزعة من يدي السيد نافع وأتباعه حتى لو تطلب الأمر إيقاظ عبد الفتاح من قبره لأيقظوه وأصـبح التفكيـر منحصـراً فـي ضرورة الانتقام ، بينما أصر أتباع السيد نافع أن يقيموا ليلة احتفـال كبير بهذه المناسبة ، غير أن السيد نافع طلب إرجاء الاحتفالات إلـي ما بعد حصد أول محصول يتم جمعه من تلك الأرض المعادة خاصـة أن عددا كبيرا من القضايا قد أصبح ينتظره وينتظر الكثير من رجاله .

اختلط الليل بالنهار والنوم باليقظة ، أصـبح الحاضـر فـي الماضي والماضي في المستقبل فلم يعد يدري أيها يعيش وأيها يموت ، ولم يعد يدري أيهما الذي يعيش ومن ذا الذي يذهب إلي الآخر ، لم يعد عبد الفتاح يعرف أوقاتا للزيارة ، تارة يأتيه في الليـل ، وتـارة فـي الفجر وتارة في وضح النهار ، طال الحوار بينهما والنقاش والشجار ، راح السيد نافع يناقش عبد الفتاح في كل الوقت رغم محاولته الهرب ،

أصوات تحاصره أينما ذهب أو أتي ، أصواب ما فعل أم أن لعبد الفتاح رأي آخر ؟ طالت الحوارات وامتدت المناقشات فتلاشت حدود الزمان وتماهت أبعاد المكان .

استشاط غضباً كلما حاول عبد الفتاح تعنيفه وأرقه النوم كلما شعر بتألمه ، وامتلأت نفسه بالرضي كلما شد علي يده مؤيداً ومشجعاً ، لكنه سرعان ما كان ينفض النوم عن عيونه والتراب عن أفكاره ويهب من سباته ليبدأ رحلته اليومية سيراً علي الأقدام حول البيت في دوراته السبعة ، ومع كل دورة كان النقاش يدور ، في الدورة الثالثة ، احتد عليه عبد الفتاح ، مما زاد من مرارته وغيظه ، قرر ضرورة الذهاب إلي القبر وإحكام التراب من فوقه ، لا بد أنهم لم يحكموا غلق القبر ، وإلا ما استطاع أن يهرب كل يوم ألف مرة ، لم يكن من قبل يستطيع التحرك بهذه الحرية ، قفز قفزة طويلة ، وجد نفسه عند القبر ، وقبل أن يهيل المزيد من التراب ، ساوره الشك ، ربما يكون قد هرب أساسا منه ، راح يحفر بيديه في نهم وحنق ، تراب ورمل وحجارة ، لم يشعر بتقليم أظافره ، و لكن ..... سرعان ما انكشف الغطاء ، هوة عميقة حالكة الظلمة ، تردد قليلا ، شعر بالخوف للحظة ، تذكر الكبريت في جيبه ، أشعل عودا منه لكن هواء لا يدري مصدره سرعان ما أطفأ العود ، أشعل آخر ، أصابه ما أصاب سابقه ، أشعل ثالثا ورابعا حتى يئس من إشعال الكبريت ، خامره شك بأن الروح لم

نزل في المكان ، وربما أرواح ، أصابته رهبة وخوف ، لكن ما يشعر به من خوف أكثر ، عودته دون إحكام التراب ، وضع المزيد منه ، غاص بقدمه في الحفرة ، شيء ما يشده إلي أسفل ، لـم يعـد سـبيل للتراجع ، أخذ يتحسس بقدميه الأرض من تحته ، القبر خـال مـن أي جسد بشري ، أصابه فوران في الدم ، يسرع من البحـث ، لا شـيء يوجد ، يضرب بقدميه الأرض ، القبر خال ، يطيح بقدمـه بعنـف ، تصطدم بشيء صلب ، كاد ينكفيء علي وجهه ، تلفت حواليه ، ولمـا لم يجد أحدا من حوله ، قرر الاكتفاء بهذا القدر هذا اليوم ، يبـدأ فـي رحلة الذهاب إلي الأرض المزروعة ، وليبدأ مع رجاله فـي رعايـة محصول الذرة ، والقضايا تسير في التأجيل للمزيد مـن المسـتندات والأوراق والذهاب والعودة ، كل مرة علي ذمة قضية من القضـايا ، والتحرشات المستمرة من أتباع عبد الفتاح تارة ، ومن ورثـة رجـال عبد الفتاح المطالبين بحقهم تارة أخرى ، ولكن ما أن نضجت كيزان الذرة وحان ميعاد جمعها حتى عاد التفكير من جديد في إقامة الاحتفال المرتقب ، ولما لا نحتفل ؟ أليس من حقنا الفرح ، أعوام وأعوام لـم يمر بنا فرح أو بهجة ، عمل وخوف ورهبة ، فلما لا نفرح ، ولـيكن الفرح علي روح ناريمان الكبيرة ، وإدخال البهجة علي قلب ناريمـان الصغيرة .

تم الإعداد والاستعداد علي أن يتم إقامة الحفل في نفس البيت المُسترد والذي كان يوماً مسرحاً لسهرات المزاج والصهللة لعمر ورجاله . عُلقتْ الزينات وأحضر الطبل البلدي وتم الاتفاق مع الشاعر فتحي أكبر منشد في المركز وفرقته علي أن تكون وصلته هي الوصلة الرئيسة في الليلة .

علقت الزينات ، وأُضيئت اللمبات ، وافترشت الأرض بالسجاجيد ، وتم عمل مسرح كبير في حديقة البيت ، وانتشر الرجال المسلحين حول البيت والحديقة وتم التنبيه عليهم باليقظة والانتباه فأكدوا أن الأمر لا يحتاج إلي توصية ، وأكدوا معرفتهم بأهمية اليوم وما يُنتَظر فعله من جانب آخر ، وما أن بدأت خيوط الليل السوداء تتشابك وتنسج شباكها علي فلول النهار المنهارة حتى عمت الفرحة المكان ، ارتدي السيد نافع أبهج ما لديه من ثياب كعريس في ليل عُرسه ، كثيرين أولئك الذين تمني أن يشاركوه هذا العرس ، تتراقص الفرحة الناطقة علي وجهه ، آه لو أن ناريمان كانت معهم الآن ، يتنقل بين الحضور في خفة ومرح كطائر في صبيحة يوم ربيعي ، حتى عبد الفتاح ، كم كان يتمني رؤيته الليلة ، لربما ظن البعض أنني أتمني رؤيته شماتة ، لكن الله يعلم أن الشماتة لا يمكن أن تعرف لنفسي طريقاً ، إنهم لا يعرفون عدد المرات التي أصبح يزورني أو أزوره فيها طوال هذه الفترة ، ربما لأخذ رأيه ، وربما لأؤكد له أن هذا

التصرف كان خطأ وأن ما سبق أن أشرت عليك به كان هو الصواب ، ليتك يا عبد الفتاح كنت استمعت إلي حينها ، ربما لم يكن الحال غير ما نحن عليه ، تُري كيف أنت الآن يا عبد الفتاح ؟ وعلي أي الأحوال تكون ؟ ما الذي جري يا سيد ؟ أهذا حديث يليق هذه الليلة ؟ ألا تستطيع الهروب منه حتى في هذا اليوم ؟ ألا يكفي ما تعانيه في الليالي الأخرى؟ استعذ يا سيد بالله من الشيطان الرجيم واطرد عنك تلك الكوابيس التي صنعت الجفوة بينك وبين النوم ، أنت الذي كان ينام في أحلك الأوقات وهو قرير العين ، ألست أنت الذي كانوا يصفونك بالبرود وهم لا يعلمون ؟ ما كان بروداً ، وما كان هروباً ، وإنما هو البحث عن الطمأنينة التي تمكنك من التفكير السليم ، ألم أكن أنا القائل : العقل السليم في الأعصاب السليمة .

تتساقط عليه التهاني من القاصي قبل الداني ، اطرد عنك يا سيد تلك الليلة وعش ليلتك ، الليلة فرح لا ليلة موت ، كم كان عنق القبر ضيقا يا سيد ، كنت تشعر بكل ما يدور حولك ، غير أنك لم تكن تستطيع الكلام ، بل ولا الحركة ، أليس ذلك شبيه بما يحدث لك كثيراً في أحلامك العديدة التي ترافق نومك ، ولكن هذه المرة كدت توقن يا سيد أن الذي يدور ليس بحلم ، فقد كنت تشعر بضيق مدخل القبر ، وكنت تشم رائحة التراب ، وكنت تشعر بضيق الكفن وكأنهم صنعوه ضيقاً أكثر مما ينبغي ، أعجبتك التجربة ، فضلت الاستمرار فيها إلي

نهايتها ، كم تستهويك التجارب يا سيد ، أليس في كل ما عانيت الكفاية ، ولكن لماذا انتابك الرعب عندما بدأوا في إهالة التراب من فوقك ؟ أليست التجربة بعد ذلك أكثر إثارة ، فرحت تصرخ وتنادي ، أهل صُمّتْ آذانهم أم أن صوتك أنت الذي لا يفارقك ؟ ولكنه كثيراً ما كان يخرج ويسمعونك ، ألم يكونوا يُقظونك كثيراً وأنت نائم ، ألم يهزوك بعنف عندما كان يعلو صوتك وترفض الاستيقاظ بسهولة .

وأصر السيد نافع علي أن ترتدي ناريمان الصغيرة فستاناً أبيض كعروس في طريق زفافها ، فبدت أكثر بهاءً ونضارة فوق بهائها ونضارتها ، وازدادت تشابها بناريمان الكبيرة في جمالها وخفة حركتها ، خفف يا سيد من نشوتك وخيلائك ، ولكن لماذا ، أليس من حقي أن أفرح بعد طول ما عانيت ؟ يا إلهي ماذا يحدث ؟ أكاد أشعر بنفسي أرتفع عن الأرض ، لا أشعر بجسدي ، قدماى ترتفعان عن الأرض ، إذن ، لماذا لا أفعل مثلما تفعل الطيور ، أرفع يداي إلي أعلي ، أفردهما علي طولهما ، أحركهما لأعلي ولأسفل ، أكرر الحركة ، أرتفع عن الأرض كثيراً ، إنني أطير ، أحلق حول المكان ، أستطيع الرؤية أكثر ، أكاد ألم بمساحة المكان بأكمله ، ها هي الأشجار تبدو أسفل مني ، الناس يتصاغر حجمها وتصبح في حجم أرنب ، الرجال كالأرانب ، الرجال يتسابقون في إطلاق الأعيرة النارية فرحاً وابتهاجاً ، ليل القرية الساكن أضاءه نور النهار ،

متوقد بالصخب والضجيج ، تضئ الطلقات سماء القرية التي خلـت من النجوم فتملأها نجوما متلألأة بالبهجة والفرح ، تحول ذراعي إلي أجنحة ، إنني أطير ، أرفرف ، طلقات الابتهاج تتناثر في الجو .

إلا أن أكثر من واحدة كانت قد استقرت في أكثر مـن موضـع ..... في جسد السيد نافع .

***

نزل الخبر كالصاعقة علي قلب السيد عبد العظيم ، لم ينطـق ببنت شفة ولم يتحرك وكأن شللاً قد أصاب الجسد كله نحو سبعة أيام ، لم يذق فيها النوم ، لم يتناول طعاماً ، لم يتكلم فيها إلي أحد ، الأفكـار تنهش فيه نهش النار في الهشيم ، تتصارعه فتحيـل وجـوده جمـراً ، اختلط الليل بالنهار ، فلم يعد يميز بين السـواد والبيـاض ، تتحامـل عظيمة علي نفسها ، تضع أمامه رغيفا مقددا وقطعـة جـبن دون أن تنطق ، بعد مرور بعض الوقت ، تعود لتحملها من أمامـه ، وهـي لا تدري إن كان نائماً أم يقظان ، لا تجرؤ علي النطق ، لا ترفع عينيهـا في عينيه ، كم تود لو تعرف فيما يفكر ، الأفكار السوداء تجـثم علـي الصدر فتختنق الأنفاس ، الهزال بدأ يدب في أوصاله فأحالت جسده إلي عود جاف من جريد النخيل ، وكان حتماً أن يتخـذ قـراراً ، شـريط الأحداث والذكريات يتتابع في مرارة ، لم يشعر في حياته بمرارة كتلك

التي يشعر بها ، ألو كانت عظيمة قد أنجبت له ولداً ، أكان يحدث مـــا حدث ؟ ألو كان له ولد منذ أن تزوجا ، أكان الآن يستطيع الدفاع عنه والأخذ بثأره ؟ ولد ؟! ومن أين كان يأتي الولد ؟! أبعد كل هذا تتضح الأمور ؟ وأنا الذي كنت أظنها هي ؟ أتراها كانت تعلم وتدعي أنها لا تعلم ؟ ولكن كيف كانت ستعلم وهي التي لم تغادره ؟ وماذا تراها تقول الآن ؟ وكيف أسمح له أن يعيش كابني وهو ليس بابني ؟ ألا يحـــدث إلا بعد ما فعل هؤلاء الكلاب ؟ أ كان عليه الصمت والخنـــوع مثـــل الآخرين ؟ ألو كانت أمه لا زالت علي قيد الحياة ، أكان من الممكن أن يفعلوا بها ما فعلوه مع عظيمة ؟ تذكر أنه لم يصلي فرضاً ولا سنة منذ أن حدث ما حدث ، لم يجد في نفسه القوة أو الإرادة في الصلاة ، أهل يرضي الله عما حدث ؟ .. اختبار ... وكيف يقوي علي مثل هذا الاختبار وهو الوحيد الأعزل ؟ وما الذي يمكن أن يحدث لو أنه خـــرج الآن وأشعل النار في القرية بأكملها ؟ أليست تستحق الحريق فعـــلاً ؟ إن أحداً لم يفكر في نجدته ، ولم يفكر واحد في السؤال عنه بعد الـــذي حدث وكأنه كلب أجرب يخشى الجميع الاقتراب منه ، .. لا يعلمون !! كيف لا بد أن أبو الهول قد مر بالقرية كلها ليعلن ويُعلم الجميع بما حدث ، وكأنه بعيد عما حدث ، وبراءة الخبث والخديعة تملأ عونيـــه ، ألا زال الأغبياء يظنون أنه هو الشيخ المبارك صـــاحب الكرامـــات ؟ شعور عنكبوتي يتلبس كل وجوده باليأس والإحباط ، يشـــل حركتـــه ،

يُدغدغ كيانه ، لا مخرج ، لا نجاة ، لا أمل ، أهـل يـتخلص مـن حياته ؟ وماذا عنها ؟ أيتركها لهم لينهشوا فيها من جديـد ؟ أيقتلهـا ؟ وماذا يفعل هو بعدها وكيف يهرب مما حدث ؟ الفضيحة ستظل تطارده ما أحياه الله ؟ وما ذنبها فيما حدث ؟ أيقوم بعملية انتحاريـة ويـدمر بيوتهم عليهم وليكن ما يكون ؟ ولكنهم أولاد كلب ، لا بد أنهم يفرضون حراسة حديدية علي أنفسهم ، أليسوا كلاباً تحرسها كلاب ؟

وقبل منتصف الليل ، وبينما عظيمة تغط في نومها ، دبت القـوة فـي أوصاله ، لم يعد للتفكير مكان في وجوده ، وكالمنساق لا يملـك مـن أمره شيئاً ، رفع السيد عبد العظيم فأسه وانهال بهـا علـي رأسـها ، وكأنه ينتقم من الوجود كله ، وبكل القوة التي لم تكن به طوال حياتـه استمر بلا تعب ، يضرب الرأس ، الدماء تتسال في المكان ، تزحـف علي الأشياء ، أصبح المكان كله بلون الـدم ، يضـرب ، يضـرب ، يضرب ، حتى فارقت الحياة ، تركها غارقـة فـي بحـر دمائهـا ، كالمخدر لا يشـعر بشـيء ، وكـالمنوم يسـير ، وعنـد الترعـة القبلية .... ربط حجـراً كبيـراً فـي سـاقه بقـوة ، حملـه بصعوبة .... وإنقذف به في الترعة التي كانت قد امتلأت عن أخرها .

***

حكي الحاج عبد العزيز القططي مأذون القريـــة ومُـــزوج أسرها قال :

كان علي السيد نافع أن يأخذ دوره في إسقاط واحد من عائلـــة عبد الرحيم ، ولم يكن لمحاولاته في تأجيل هذا الفعل لتفلح أمام إصرار والدته التي لن يهدأ لها بال قبل أن يرفع هو رأسه بين رجال العائلـــة ، ويدع عمه يهنأ في تربته ، في مسلسل الثأر الدائر بين عـــائلتي عبـــد الرحيم و الأسيوطي التي ينحدر منها السيد نافع والذي كان قد أصـــبح عليه الدور في هذا المسلسل ، ولم يكن السيد نافع هو الشـــاب فـــي العائلة ، لذا وقع عليه الفعل ، بل لأنه هو المعروف بين شباب العائلة الماهر في القنص ، والذي تدرب عليه منذ أن أصبح قادراً علي حمـــل الخرطوش ، لم يكن يتخفى بين عيـــدان الـــذرة أو القصـــب أو خلـــف الأشجار ، وإنما في وسط شوارع المدينة نفسها ، وبينما كان سالم عبد الرحيم يجلس بين أربعة من عائلته أمام أحد دكاكين البقالـــة ، صـــوب السيد نافع خرطوشه في منتصف الجبهة ، لم تستغرق العمليـــة بضـــع ثوان ، ولم يعلم أحد كيف لم يستطع أحد الإمساك به ، ولأن الموت شيء غير مستحب ، والاستسلام أكثر منه سوءً وعارا ، كان حتمـــاً أن يختفي السيد نافع عن الأنظار في جهة غير معلومة حتـــى لأقـــرب الأقربين منه .

قبيل الفجر انسل خارجاً متخفياً وملثماً في عربة نقل متجهــة إلي القاهرة التي يذوب فيها البشر والجماد والحيوان ، ولكــن القــاهرة أصبحت في متناول الجميع ، والوصول إليها لم يعد عسيراً ، ولا بد أن لعائلة عبد الرحيم عيون في القاهرة ، حتى لو تطلــب الأمــر البقــاء بالقاهرة لعدد من أبناء العائلة متفرغين للبحث عنه واصطياده حتى لــو كان في حضن البوليس نفسه ، تاه فيها أربعة أيام عُلقت فيها رقبته علي زنبرك ، وركبت فيها علي عينيه عينا صقر ، إلي أن حملتــه ســيارة أحد المقاولين العاملين مع الجــيش الإنجليــزي القــابع علــي صــدر الإسماعيلية حول بحيرة التمساح المتصلة بالقناة ، لم يكن المقاول يعلــم بحكاية السيد نافع ، فاختاره تباعاً علي السيارة لتوصيل سيارة الأغذيــة ، ولم يكن هو أيضاً يعلم أن الحمولة متجهة إلي الجــيش الإنجليــزي ، وعند تفريغ حمولة السيارة وعندما قربت الحمولة علي الانتهاء ، كــان الإنهاك قد أخذ منه مأخذاً فقذف بالجوال من الســيارة إلــي الأرض ، فانشق الجوال وتناثرت بعض محتوياته ، برطم الجنــدي الإنجليــزي المتابع لعملية التفريغ بعصبية فهم السيد نافع منها أنه يسبه وربما يسب أباه إلي أن نطق الجندي بكلمة فهمها السيد نافع جيدا بما لا يدع مجــالاً للشك أنها تعني (همار) ، تصاعدت أبخرة النيران المشتعلة في دمائه ، ود لو يجر رأسه ليدفنها داخل الجوال ويسد علي رقبته حتــى تفــيض روحه ، لكنه تمالك نفسه وابتلع الإهانة ، وإن كان قد اختزنهــا كمــا

يختزن الجمل الطعام ، إلي أن خرج مع السيارة إلي خارج المعسكر ، أخبر السائق أنه لن يعود معه ، رد السائق بأنه لن يتقاضى أجره حيث كان عليه العودة ويتم الحساب عند مكتب المقاول ، فرد بلعن الأجر والمقاول والعمل مع هؤلاء الكلاب ، سأله السائق عن وجهته في هذه المنطقة الملغمة وغير المأمونة والتي لا يوجد بها مدنيين ، فرد عليه ، سأذهب (في ستين داهية) ولكني لن أعود معك ، وكان الليل قد أوشك علي الانتصاف وافترش الظلام الدامس المكان ، ولا شك أن السيد نافع وجدها فرصة ساقتها له السماء خاصة بعد ما ذكره السائق ، فانطلق السائق وانزلق السيد نافع إلي مناطق الأحراش المتعالية الأعشاب القريبة من المكان ، تحسس الأرض من تحت قدميه تأكد من جفافها ، تكوم في مكانه وراح يبحث عن النوم حتى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

شعر بتقلص أمعائه ، أراد أن يقضي حاجة ، ابتعد قليلاً يبحث عن بقايا مياه ، لم يجد ، لم تمهله أمعاؤه ، استعر ش بعض النباتات المتعالية قليلاً وقضي حاجته ، وبحث عن (طوبة) ، ابتعد قليلاً مستكشفاً المكان ، لمح علي البعد ما قد يكون خياماً ، ماذا لو كانت خيام الجيش ، وربما تكون أحد معسكرات أولاد الكلاب ، بدأت الشمس ترسل بعض ضوءها ، أضيء المكان فجأة كما لو أن مصباحاً تم الضغط علي زره ، رأي بعض الزراعات القصيرة تقلصت أمعاؤه

من جديد لكنه شعر بالجوع ، بحث في النباتات المتبعثرة في المكان عما يؤكل ، لم تكن الزراعات قريبة بالقدر الذي توقعه ، فقد سار نحو ساعة كاملة حتى تعرف علي بعض الزراعات القريبة من الأرض ، عرف أنها الفول السوداني ، لقد رآها من قبل ، غمرته فرحة عارمة ، أخيراً وجد ما يمكن أن يؤكل ، ولكن ، ماذا لو أن أحداً رآه هنا ماذا يكون موقفه ؟ أيصدق أنه إنسان جائع إلي هذا الحد ؟ ولكن نداء البطن لا يقاوم ، ولقد أشعل سجائر كثيرة حتى لم يعد قادراً علي المزيد منها ، علي الرغم من أنها تسد شهيته عن الطعام ، انزلق إلي أقرب حقل بعد أن تفحص المكان من جهاته الأربع ، جمع بعض قرون الفول في يديه ، وضعها في جيبه وجمع كمية أخري ، انسل خارجاً ، وقبل أن تخرج قدمه الثانية إلي خارج الحقل ، كان هناك من ينادي عليه في غضب ويسرع الخطي في اتجاهه ، وكأنه لم يأبه بما يدور ، توقف في مكانه وراح يزدرد بعض قرون الفول في نهم ، اقترب منه الرجل في غضب صائحاً فيه ومتسائلاً عما فعل ، بكل برود رد : وماذا فعلت ؟ كل ما هناك أني جائع ووجدت ما يؤكل بعد أربع وعشرين ساعة لم أذق فيها الطعام .

هدأ الرجل قليلاً وكأنه قد رثي لحاله وقال :

ولكن الفول بهذه الحالة مليء بالزيت وسوف يسبب لك الإسهال .

فرد السيد نافع أملأ بطني أولاً و بعد ذلك أبحث أمر الإسهال

استطرد الرجل :

يبدو أنك لست من هنا . فأجاب السيد نافع : ولا من هنـــاك ، فرد الرجل : كيف ؟ إن ذلك شرحه يطول ، هل لك أن تدعوني إلـــي كوب شاي وأحكي لك الحكاية كلها ، فرد الرجل بدهشة واســتغراب : تفضل .

حدثه السيد نافع عن حضوره مع سيارة المقاول وما كان من الجندي الإنجليزي وكيف أنه يرفض التعامل مع هؤلاء المحتلين لدرجة رفضه العودة مع السيارة ، أو العودة إلي أهله ، ولم يذكر بالطبع مسألة الثأر والسبب الحقيقي وراء عدم عودته ، ذكر أن المكان هنـــا أعجبـــه ويود البقاء هنا لفترة حتى لا يقع في يد هذا المقاول مرة أخري ، ولكنه بالطبع لا يستطيع البقاء بلا عمل ، وسأل ماذا يستطيع عمله هنا حتـــى يستطيع الاستمرار في هذه البقعة الجميلة المريحة ، أخبره الرجـــل أن العمل هنا كثير ، فهنا نحتاج الكثير من الرجال لنظافـــة الأرض مـــن الحشائش و لجمع المحصول وغير ذلك من أعمال الحقول التي لا بـــد أنك تعلمها جيدا ، والتي ربما تستغرق العام كله ، هلل داخلـــه وراح يرتب ماذا يمكن أن يفعله ، وكيف يستطيع التخفي في هـــذه المنطقـــة التي ربما لا يعرفها أحد من عائلة عبد الرحيم ، أو حتـــى مـــن أهـــل بلدته ، وراح يدبر مع الرجل أمر الإعاشة والمبيت .

***

انتبه الشيخ أحمد يحيي علي صوت الرسول الذي أرسله السيد نافع في طلبه ، وكأن سنة من النوم قد أخذته ، لم يطل به التفكير وقد عادت إليه أعوامه الفائتة وأخبره بأنه لا يستطيع دخول هـذه السـراية بعـد عاصم بيه ، وإذا كان السيد نافع يريده فعليه بالحضور ، الأمر الـذي أثار السيد نافع كثيراً وخرج به عن هدوئه المعتاد وقـرر إيقـاف أي تعاون أو تشاور مع الشيخ أحمد حتى لو اضطره ذلك لعودة التعاون مع أتباع عبد الفتاح .

***

رغم محاولته كبح جماح غضبه ، إلا أنه لم يستطع إخفـاء مـا يعتمل بداخله من صراعات وقلق ، فأصبح الحديث يدور بينه وبين نفسه طويلا حتى خشي ما يمكن أن يفهم منه أو ما يمكن أن يؤدي إليه ذلك ، فتزايدت في الفترة الأخيرة زيارات السيد نـافع لعبـد الفتاح بتزايد فترات مكوثه مع النفس وتدبر الأمور مـن حولـه ، مرات يبدأ هو بالزيارة ، ومرات يبدأه عبد الفتاح بالزيارة ، لقـد

عاب علي عبد الفتاح كثرة شكوكه فيمن حوله ، أترى أصابته العدوى ، أم أن هذه سمة الجالس فوق القمة ؟ إنه منذ أن مات عبد الفتاح ، أصبح هو الجالس فوق المجموعة ، حتى لو لم تعد المجموعة هي المجموعة ، أحاطه السؤال بكتلة ضبابية لوثت صفاء نفسه ، أين ذلك الصفاء مع النفس الذي منحتني إياه التجارب ، وما كنت أزهو به علي الآخرين ، ذلك الذي مكنني من معايشة عبد الفتاح طوال تلك الفترة ، بل والتي مكنتني من الصمود أمام محاولات عمر المتكررة للإيقاع بيننا ، أبعد كل ما فعلته من أجل الشيخ أحمد يحيي يرفض الحضور ؟ ألا يستطيع أن يدرك أن عاصم بيه قد رحل ورحل أيضا عبد الفتاح ؟ ألم أعدهم بإعادة كل ما راح إليهم من جديد وتصحيح الأمور علي الوجه الذي يريدونه ؟

استمع إليه عبد الفتاح طويلاً دون أن يبدي رأيا .

لماذا تبدوا هكذا هذه المرة ، أراك صامتا علي غير عادتك .

تساءل السيد فأجاب عبد الفتاح :

رغم أن هذا من الأسباب التي أدت بي إلي ما أنا فيه الآن ، إلا أني لا أملك إلا أن أشور عليك به ، لا تأمن لأحد وإن طالت صداقته ، فربما صار الصديق يوما من الأعداء .

وما أن قال عبد الفتاح ذلك حتى كان قد اختفي لفترة طالت حتــى ظنه السيد لن يعود إليه ، غير أنه راح يقلب الرأي علي جوانبــه حتى رأي ألا مفر من التصديق حتى وإن لــم يكــن قــد أخلــص المشورة ، وما كان غير سامبُو يصلح لما انتواه وقــرره ، ورأي الخير في الاستجابة لما أراده سامبّو .

***

استقر السيد نافع في عشة من البوص علي رأس أحد حقول الفول السوداني ، بعد أن كان قد بدأ العمل في الحقل ، لكنه عندما استفســر عن كيف يمكن ابتياع حاجياته أخبره الرجل عن محل الحاج مصــطفي الذي يبعد عن منطقة الحقول في فابد مسافة نحــو النصــف ســاعة ، بالقرب من معسكرات الجيش المصري ، وعندما زاره للمرة الأولي ، كان الكثيرين من الجنود متزاحمين حوله ، خشي الاقتراب ، خشية أن يكون هناك من يعرفه ، وعلي الرغم من محاولته التخفــي ، إلا أنــه ظل بعيداً إلي أن هدأ الزحام ، واقترب من الدكان ، اشــتري ، قطعــة صابون وباكو شاي ، ونصف رطل سكر وعلبــة ســجائر ، وأســرع بالعودة وهو يداري وجهه ، لكن الزيارات تكررت حتى بات يعلم متي يكون المحل مزدحماً ومتى يستطيع الذهاب دون أن يراه أحد ، وفــي تلك الأثناء كان قد رأي فتاة تتردد كثيراً علي المحل ، عرف فيما بعد

أنها ابنة الحاج مصطفي ، وأنها هي التي تتولي أمـر المحـل عنـدما يتوجه الحاج مصطفي لشراء لوازم المحل من الإسماعيلية ، أو في احد مشاويره في القاهرة .

توطدت علاقة السيد نافع كثيراً بالمحل وبدأ التعرف علـي ابنتـه التي عرف أن اسمها ناريمان ، حتى أن الحاج مصطفي هو أول مـن عرف حقيقة وضع السيد نافع وهروبه من الثأر في بلدته ، كما كانـت نظرات متخفية قد بدأت تتبادل بين السيد نافع وناريمان ، شـده إليهـا ابتسامة خجولة ، تعتري وجنتيها وتبرز الغمازتين وتكسو سُمرة خفيفة وجهها القمحي ، يصبغه في بعض اللحظات احمرار يجعله كقـرص الشمس ساعة الغروب ، تميل قامتها إلي الطول منها إلي القصـر ، فيضفي عليها سمتاً وقوراً يدعو إلي الاحترام والتبجيل ، وجدية فـي حركاتها ولفتاتها توحي بسن أكبر من سنها بعدة أعوام ، تميـل إلـي الصمت ، فلا تتحدث إلا علي القدر الذي يفي بالغرض ، ربما كـان الفضول وحب الاستطلاع هو ما دفعه في البداية لمتابعتها أينما حلـت وأينما ذهبت ، غير أنه ألفي نفسه يتعجل الانتهاء من العمل ليسرع إلي دكان الحاج مصطفي ، حتى بات مجلسـه اليـومي الـذي لا يخطئـه الرائي ، ولا يغيب عن فطنة المتابع ، إلا أنه كان يمتلك القـدرة فـي الضغط علي مشاعره وأحاسيسه ليظل صديقاً صدوقاً للحاج مصـطفي الذي أصبح محط أسراره ومكمن أخباره ومستقر أفعاله ، لكن أسـفار

الحاج مصطفي زاد ت في الفترة الأخيرة مما أعطــي السـيد نــافع فرصة للتقرب من ناريمان ، وكلما أتي ، حمــل بعضــاً مــن الفــول السوداني ، أو الشمام الإسماعيلاوي أو المانجو أو الفراولة أو أي مــن المزروعات التي يعمل فيها حسب المواسم ، غير أن خطأ كاد يوقعــه فيما لا تحمد عقباه ، إذ بينما هي تعاتبه علي ما يحمــل ، وكيــف أن ذلك يكلفه الكثير ، إذا بالكلمات تخرج دون أن يعي لها : (وهو إحنــا دافعين فيها حاجة ؟) لكنه تدارك نفسه وأسرع في محاولة للإيهــام : أقصد أن كله من عند الله وما لنا فيه من شيء ، لكنها كانت قد بــدأت ترتاب في الكثير مما يحمل ويأتي به ، ظلت تجاهد نفسها كثيراً حتــى تمحي أثر الكلمة ، خاصة بعدما توطدت العلاقــة وتطــورت بينهمــا وأصبح هناك أحاديث خاصة تدور بينهما إلي أن بدآ يخرجان سوياً في أصائل أيام الجمع من كل أسبوع يوم يغلق المحل أبوابه فــي العطلــة الأسبوعية ، وكان ضرورياً أن يكــون اللقــاء بعيــداً عــن الأعــين المتلصصة ، خاصة أولئك الجنود المصريون الذين يتــرددون علــي المحل لشراء بعض احتياجاتهم ، والذين كانت لهم بعض المحــاولات غير المريحة معها ، وحتى أولئك الجنود الإنجليز الذين لم يكن المحل يعدمهم بين الحين والحين ، ظلا يترددان علــي أكثــر مــن مكــان ، ويجربان أكثر من ملجأ يبتعد بهم عن الجميع ، حتى كان ذلك المكــان الذي أصبح فيما بعد أشبه بمكانيهما الخاص والذي اعتبراه مسكناً أمنــاً

لهما ، وهو الجزيرة الواقعة علي مبعدة من الشاطيء الجنوبي الشرقي لبحيرة المنزلة ، يستأجران مركباً شراعياً ويعبران إليها ، يجلسان علي الرمال الناعمة الهادئة المستكينة الحنونـة كهمسـهما ومناجياتهمـا ، تطول الفترة إلي ما بعد المغرب ، فيسرع بها خوفاً عليها ، صـارت هذه اللحظات تمر سريعاً مثلما تمر اللحظات السعيد دائمـاً ، وتتباعـد الأيام وتمر بطيئة ، مثلما تمر لحظات الانتظار دائماً ، تغيرت وتبدلت أشياء كثيرة في رؤية و حياة السيد نافع ، فلم يعـد يـأتي بـأي مـن الزراعات إلا ما يكون قد سدد ثمنه بالفعل لصاحب العمـل ، أو مـا يكون قد جاد هو به عليه ، و يأبى أن تمتد إليه يده دون أن تكون يـد ناريمان قبله ، لعن الثأر ومن ساقه إليه ومن يهدده بـه ، راح يبثهـا مخاوفه عليها من الارتباط به ، وراحت تؤكد أنها علـي اسـتعداد أن تحمل هي كفنها وتذهب إليهم علهم يعفون عنه ، أكد لها أن هذا لـيس مستحيل فقط ، ولكن كيف يكون رجلها إن تركها هي تفعل ذلك ، إن ذلك هو العار نفسه ، أكدت له أنها علي استعداد للارتباط به تحت أي ظرف وفي أي مكان ، وعدها أنه سوف يكلم الحاج مصطفي ، وأنـه يعلم أنه سوف لا يرد طلبه ، فالعلاقة بينهما أكبر مـن أن تعرضـه للرفض .

إلا أن إحساساً مريراً انتابه بعد أن خابت ظنونه .

لم يكن أحد يعلم علي وجه اليقين كيف علم الحاج مصطفي بالعلاقة بينهما ، لم يواجه أحدهما بشيء ، بدأ بمنع ناريمان من الـذهاب إلـي المحل ، وأصبح المحل يغلق في غير أيام الجمع كثيـراً ، ولـم تعـد ناريمان تخرج في أيام الجمع ، لم تنقطع زيارات السيد نافع إلي الحاج مصطفي رغم ما شاب علاقته من تغير ، أصـبحت مقابلتـه فـاترة وكلماته قليلة ، النيران تشتعل في قلب السيد نافع ، وناريمـان تجلـس علي بركان يبحث عن منفذ للانفجار ، رُكبت عينـاه علـي زنبـرك متحرك يدور دورة كاملة كل بضع ثـوانٍ ، مـن بـاب الفضـول و الاطمئنان ، استجمع شجاعته كمن يتأهب للقفز فـي ميـاه غريقـة ، خفض عيناه ودون أن ينظر في عيني الحـاج مصـطفي سـأل عـن ناريمان ، بادله الحاج مصطفي عدم رفع الرأس ، وفي كلمات بـاترة باردة أجاب : ذهبت إلي بعض أقاربنا في الإسماعيلية لقضـاء عـدة أيام ، قاوم السيد نافع رغبة ملحة في الاستطراد ومحاولة معرفة فـي أي شوارع الإسماعيلية تكون ، لكن الكلمات لم تطاوعه ، تناسي الثأر وما هو في مهرب منه وراح يجوب شوارع الإسماعيلية دائراً برأسـه علي كُرة دوارة ، كلت قدماه وهده التعـب ، عـاود الزيـارة للحـاج مصطفي ، استجمع كل ما تبقي فيه من شجاعة ومـن أمـل وطلـب ناريمان منه لنفسه ، تصنع الحاج مصطفي الدهشة والمفاجأة ، صمت

طويلاً ولم يجب ، أعاد السيد نافع الطلب وحثه علي الإجابة ، نطق الحاج مصطفي قائلاً :

إذن ما علمتّه كان صحيحاً ؟

عاجله السيد نافع :

وما هو الذي علمته يا حاج ؟

استطرد الحاج :

أن هناك شيئاً بينكما ، أهذه أخلاق الصعايدة يا سيد ؟ أأتمنك علي ابنتي فتخون الأمانة ؟ غطت حُمرة الخجل علي سّمْرة السيد نافع وتلجلج وتعثر في الحديث :

كيف أخونك يا حاج وأنت الذي فتحت لي قلبك وعقلك وكنت الصدر الذي ضمني في غربتي ، وكنت الناصح لي في كل تصرف ؟ من الذي أخبرك بذلك ؟

- ليس مهماً من الذي أخبرني ، المهم أن هذا صحيح .
- أقسم لك أن مابيني وبين ابنتك إلا كل مودة وصدق ، ولو أنني رأيت منها ما يشينها ما كنت تقدمت إليك بهذا الطلب الذي علقت عليه الأمل المتبقي لي في حياتي ، وما تقدمت إليك إلا لعلمي بثقتك التي أود ألا تفقدها مطلقاً ، وما جرؤت علي طلبها إلا لعلمي بأنك لن ترد طلبي .
- علي العموم الزواج قسمة ونصيب .

- ولكني أري نصيبي مع ناريمان .
- لو كنت تعزها حقاً ما فعلت ما فعلت ، ولو كنت تعزها حقاً ما تقدمت بهذا الطلب وأنت تعرف مصيرك المحتوم إن آجلاً أو عاجلاً .
- ولكنك تعلم أن الأعمار بيد الله ، ولا أظن أن ما حـدثتك بـه بكل الصدق ، يعتبر حكم بالإعدام علي من قبل الإعدام ، أنت تعلم جيداً أن كل حي سيموت إن آجلاً أو عاجلاً ، ولا تدرى نفس بأي أرض تموت ، أيعني هذا أن يعيش الناس والكائنات في انتظار الموت ، دون أن يُعمـروا أرض الله التـي أمـر بإعمارها ألا تعلم الحديث الذي يطالبنا فيـه الرسـول عليـه الصلاة والسلام
- عليه الصلاة والسلام
- بأنه إذا جاء الموت أحدنا وفي يده فسيلة فليغرسها ؟

تعجب الحاج مصطفي من ذلك الذي لم يتم تعليمه وهارب ليعـيش في البراري ويتحدث بهذا الحديث شاعراً أنه علي وشك التسليم بمنطقه والاستسلام أمام إصراره .

- يبدو أنك أعددت كل شيء وتسوق الحكمة ، ولكـن الفلسـفة شيء والواقع شيء آخر .

- الأمر ليس فيه حكمة أو فلسفة يا حاج ، ولكنها خبرة الأيـــام والليالي ، وصدق من يقول من لم يعلمه أمه ولا أبوه علمتـــه الأيام والليالي .
- ما دمت تتحدث بقول الحكمة وقول الرسول ، فأنت تعلـــم أن الأمر ليس بيدي ، ولا بد من أخذ رأي صاحبة الشأن ولتنظر هي في حياتها .
- ولكني أعلم موافقة صاحبة الشأن .
- إذن فأنت لا تستحي من الاعتراف بما بينكما ؟
- الأمر لا يحتاج إلي اعتراف يا حاج ، فكل ما بيننا هو المعزة والود والشرف ، وها أنذا آتيك من الباب فهل تردنـــي غيـــر مجبور ؟
- الأمر يحتاج إلي ضرورة سماع رأيها أولاً واستشـــارة أهلنـــا ثانياً .
- لك ما تريد يا حاج ، ولكن أرجو ألا تغيب علي كثيراً ، فكما تعلم العمر ....

***

في جلسة العصارى بدكان أبو العبـــاس ، حكـــي الأســـتاذ طه أبو حجر مدرس المدرسة الإلزامية قال :

لم يكن سامبُو قد جاوز العاشرة من عمره عنـــدما ذهـــب والده عبد المعبود يرجو الشيخ أحمد يحيي أن يُلحقه بالعمل عنده ضمن الأنفار ، ولما لم يكن يقدر علي العمل بالحقل أو تحمل حرارة الشـــمس في جمع القطن أو دريس القمح في الأجران ، أو لسعة بـــرد الفجـــر عند ضم القمح قبل وصول الفطير المشلتت للأنفار ، أشفق عليه الشيخ أحمد يحيي من العمل في الحقل وأبقي عليه في خدمة المواشي التـــي لا تغادر زريبة الدُوار ولا تعمل في الحقل ، مثل الشّبْ الذي وهبه الشيخ أحمد طلوقة للبقر الطالب للعُشر لمن يريد من أهل القريـــة جميعـــاً ، فأصبح سامبُو أقرب الأنفار من أهل الدوار ، حتى صار مـــن يريـــد منهم شيئاً أن يطلبه من سامبُو ، خاصة الشيخ أحمـــد نفســـه الـــذي استطاع سامبُو أن يستحوذ علي قلبه بعد أن نجـــح هـــذا الأخيـــر فـــي الوصول إليه بما أبداه من اهتمام خاص بالركوبـــة الخاصـــة بالشـــيخ أحمد ، والتي كان قد استقر عليها الحال بعد أن قرر الشيخ أحمد بيـــع الحصان الشهير بعد ما سقط من فوقه ابنه كمال الذي كان يـــدور بـــه كثيراً في القرية ، وما لم يكن الشيخ أحمد يرضي عنه ، حيث أصـــبح سامبُو يخصص لها عليق مخصوص لا ينقطع من أمامها ، والنظافـــة والعناية بالسرج الخاص بها والذي أراح الشيخ أحمد كثيراً كلمـــا أقبـــل

علي ركوبها ، وما كان يظهره من اهتمام بكمال أكبر أبناء الشيخ أحمد والوحيد الذي استقر بالقرية لرعاية الأرض والمواشي بينما نزح أخواه لاستكمال الدراسة بالبندر ، وأصبح كمال هو صاحب الأمر في كـل شيء بعدما تفرغ الشيخ أحمد لأعمال العُمودية ، وتطلب منه الأمـر كثرة التواجد بين الناس لحل مشاكلهم والذهاب إلي المركز لمقابلة البيه المأمور ، إلي جانب كبر السن الذي عاق كثيراً من حركته ، وسـمح الشيخ أحمد لسامبُو - بل شجعه كواحد من أبنائه - باستكمال تعليمه الزراعي متحملاً كافة المصاريف والملابس حتى حصل علي دبلـوم المدارس الزراعية ، وأصبح يُنادي بالباش مهندس ، و قـرر الشـيخ أحمد بأن عمله لم يعد يتناسب مع وضعه الجديد ، فأصبح مسئولا عـن مباشرة الأرض من النواحي الفنية ، كتحديد أي الأرض يـزرع قطنـاً وأيها يزرع ذرة وأيها يمكن أن يصلح للقمح أو للخضار . إلا أنه ظل يتحين الفرص للذهاب إلي الدوار إما لعرض مشكلة في زراعة الخضر في الحوض البحري أو لتأجيل ضم القمح أسبوعاً آخر فـي الحـوض القبلي ، أ و للشكوى من العمال في تأخير حش البرسيم ، أو غير ذلك من الأسباب و العلل المختلقة ، كل ذلك لعله يحظى برؤية نادية ابنـة كمال التي لم يكن يمل النظر إليهـا ، أو اخـتلاق الأسـباب للحـديث معها ، إلي أن وصل إلي العشرين من عمره حتى أرسل الشيخ عبـد

المعبود ليحدث كمال في الموضوع و ليفاتح بدوره الشيخ أحمد في طلب يد نادية .

كان دم كمال يغلي ويفور وتكاد الثورة تشل لسانه وهو يحكي لوالده الشيخ أحمد عما كان من عبد المعبود وابنه الذي تناسي أصله وفصله وجرأه عطف الشيخ أحمد له في نسيان الأصول والأعراف ، لكن الشيخ أحمد لم يثر ثورة ابنه ولم يعلق بشيء سوي أن طلب من ابنه كمال أن يطلب من الشيخ عبد المعبود أن يقابله غداً بعد صلاة العشاء ، وفي الميعاد المحدد حضر الشيخ عبد المعبود مرتجفاً وجلس أمام الشيخ أحمد في أدب تعود عليه ، جلسة العارف للأصول والمقدر للشيخ أحمد فضله وقدره ، وبدأ الشيخ أحمد حديثه بعد أن طلب القهوة للشيخ عبد المعبود ، مؤكداً له أنه منذ أن دخل ابنه الدوار وهو يعامله كواحد من أبنائه ، ولن يقول أن ابنه خان الأمانة ونظر إلي نادية لأنه متأكد من أخلاق حفيدته كما أنه متأكد من أن سامبُو لم يتجاوز حدوده ، وأنه من حقه كشاب أن يختار لنفسه من يشاء للزواج ، غير أن نادية قد قُرأت فاتحتها علي ابن عمتها منذ أن كانا صغيرين ، و كما تعرف هي التقاليد وأنت سيد العارفين لها ، وسامبُو شاب نشيط ومجتهد وخير بنات البلد يتمنونه ، ويوم أن يتخير لنفسه ابنة الحلال سيكون هو الذي يخطبها له .

فهم الشيخ عبد المعبود الرسالة ووعيها جيداً ، شكر للشيخ أحمد أفضاله الكثيرة ليس علي سامبُو فقط وإنما علي البلدة كلها ، وكاد يقبل يد الشيخ أحمد الذي رفض بشدة واستغفر الله مودعاً ومؤكداً علي عدم تأثير ذلك علي عمل سامبُو وأنه ينتظره في الغد لمباشرة عمله وكأن شيئاً لم يكن .

تابع الشيخ أحمد انتظام سامبُو في العمل ، غير أنه لم يحضر في اليوم الأول ، سأل عنه في اليوم التالي ولم يحضر ، في اليوم الثالث والرابع والخامس إلي أن تأكد من رفضه المجيء للعمل مرة أخري وسمع ما ادعاه سامبُو وما تلفظ به في حق الشيخ أحمد ، وما راح (يُلسن) به بين الناس في شأن ما تصوره من علاقة بينه وبين نادية ، وكيف أنه نشأت بينه وبينها علاقة حب متبادل ، ولن يستطيع مخلوق من كان ، حتى لو كان الشيخ أحمد نفسه ، يستطيع التفريق بينهما ، مهما باعد بينهما الزمن .

تناثرت الكلمات في القرية الصغيرة ، حتى أصبح اسم نادية علي كثير من الألسن ، الأمر الذي أصاب الشيخ أحمد بالحزن ، وأصاب كمال بالثورة والوعيد والتهديد إن لم يكف هذا السامبُو ، ويلزم حدوده ، حتى جاء الشيخ عبد المعبود واعتذر للشيخ أحمد الذي هون عليه الأمر وأكد له أنه صغير لم يزل ولا يدرك ما يفعله فلا تشغل بالك كثيراً ، ولكني فقط أخشي عليه ثورة أعمامها لبيب وصبحي

وأبوها كمال ، فأنت تعلم الشباب وكيف يفكر ، وكيف أن خبرتــه فــي الحياة وفي الحكم علي الناس والأمور محدودة ، حتى انصــرف عبــد المعبود وهو أكثر خجلاً مما أتي ، وتحير ماذا يستطيع أن يفعل مع ابنه الذي لم يعد يستطيع السيطرة عليه .

ولم يكن الشيخ أحمد يتوقع السؤال عندما فاجأه عاصـم بيــه عــن سامبُو ، استوضح الشيخ أحمد الأمر ، علم أن سامبُو يريــد الالتحــاق بالعمل لدي عاصم بيه ، ورغم أن الشيخ أحمد قد أُخذ علي حين غرة ، ولم يكن يتصور أن ينقلب سامبُو بهذا القــدر ، إلا أنــه - كعادتــه - يستطيع بلباقته وكياسته الخروج من المآزق التي طالما تعرض لهــا ، فأفاض كثيراً وأثني علي سامبُو وأخبر عاصم بيه أنه ما انقطــع عــن العمل لديه إلا لأن رزقه توقف معه عند هذا الحد ، و لم يــذكر شــيئاً سوي ذلك .

***

لم تكن سبعة أيام بالشيء اليسير علي السيد نافع بعد حديثــه مــع الحاج مصطفي حتى ظهرت ناريمان بالمحل أخيراً ، كان كمن يود أن يتناسى كل من وما حوله ويحملها بين يديه ويطير في السماء بعيدا عن

أعين الجميع ، ولم تكن أقل منه لهفة وشــوقاً ، ربمـــا يكـــون الحـــاج مصطفي قد تعمد أن يختلق مهمة عاجلة إلي الإسماعيلية حتـــى يتـــرك لهما فرصة المصارحة والتقارب ، أخبرته بمحاولات الحاج في إثنائهـــا عن الموافقة علي هذه الزيجة ، حاول إخافتها مما ينتظرها معه ومـــا ينتظره من مصير محتوم ، بعد أن أنبها كثيراً لخيانتها الأمانة وخيانتـــه الأمانة ، وكيف أنها أصرت علي التمسك به وهددت إن هو لم يوافق ، وأنه علي وشك الموافقة وما عليه هو إلا أن يعيد المحاولة .

ولم يجد السيد نافع عناءً عندما فاتح الحاج من جديد ، وأصر علي أن يتم الزفاف في تلك الجزيرة التي شهدت أجمـــل أيامهمـــا وأســـعد أوقاتهما .

لم يكن حفلاً كبيراً ، حيث لم يكن عدد الحاضرين يزيد عن عشرة أفراد ، غير أن إقامة حفل في مثل هذا المكان الذي تحيطه المياه مـــن كل جانب لشيء يثير الدهشة ويفرض الجمال ، ويبعـــث فـــي الـــنفس ارتياحاً ، ويدعو للفضول ، حتـــى أن قـــوات الاحـــتلال الإنجليـــزي المرابطة حول القناة راحت تتابع الفرح بالنظـــارات المكبـــرة ، وراح البعض منهم يقذف بالورود التي تتساقط في مياه القناة ، وتـــم الزفـــاف بثلاثة قوارب راحـــت تجـــوب البحيـــرة وتتعـــالي منهـــا الزغاريـــد والدفوف ، حتى الأسماك أخذت تتراقص علي أنغامها .

وكأن الحاج مصطفي قد اطمأن علي ابنته ، فلم يطل المُكث به أكثر من أربعة شهور ، فاستراح إلي جوار ربه ، وكانت ناريمان الصغيرة ابنة شهر واحد في رحم ناريمان الكبيرة و كان علي السيد نافع أن يتحمل مسئولية المحل كاملة ، كما أصبح عليه توفير احتياجات المحل من الإسماعيلية متناسياً كل مخاوفه ، غير أن تحركات البوليس المصري ومحاولاته في مقاومة الاحتلال الإنجليزي كانت قد بدأت ، وبدأت معها القلاقل التي انعكست علي أعمال المحل ، وانعكست علي ناريمان الكبيرة بصورة أثارت الكثير من القلق والمخاوف لدي السيد نافع ، خاصة بعد أن أضاء دنياهما قمر أطل هلاله في وجه ناريمان الصغيرة التي شهد الجميع أنه لولا فرق الحجم لقالوا أنهما توأمان من فرط التشابه بينهما .

وفي تلك الأثناء كانت قد تكشفت أعمال مجموعة عبد الفتاح ، وفي بحثه لتوسيع قاعدتها ونشر نشاطها ، وجد عبد الفتاح في السيد نافع من الإمكانات ما يؤهله ليلعب دوراً مهماً فيها ، من قدرة علي التخفي ، وقدرة علي القنص والانقضاض ، وقدرة علي المراوغة ، وكان دَيْنه قد سقط بقتل ابن عمه البالغ من العمر أربعاً وعشرين عاماً في مسلسل الثأر الدائر بلا نهاية بين العائلتين ، فأصبح لا يُخشى عليه من الظهور ، وأصبح علي عائلة عبد الرحيم أن تخفي أبرز شبابها الذي أصبح عليه الدم ، فأرسل عبد الفتاح إلي السيد نافع في منفاه من

يقنعه بالعودة والاشتراك في المجموعة ، الأمر الذي أدار رأس السـيد نافع وراح يفكر في أنها الوسيلة التي يمكن بها أن يدبر أمـر معيشـة ناريمان الكبيرة والصغيرة ، ولكن ناريمان الكبيرة لـو علمـت بـأمر المجموعة فحتماً سوف تثور ولن ترضي عن تلـك الأعمـال ، راح يحدث نفسه ، [لكن عبد الفتاح أكد له مع من بعثـه إليـه أن أعمـال المجموعة لن تطال إلا أصحاب الإقطاعيات الكبيـرة التـي يراهـا لا تستحق ما هي فيه ، بل إنه ينوي أن يقيم مشاريع بما سيحصلون عليه تخدم أمثاله ممن تعوزهم الحاجة ، ولكن العمل محفـوف بالمخـاطر ، وبينما هو يبحث عن الأمان لناريمان الصغيرة ، فقد يؤدي الأمر إلـي حرمانها منه هو نفسه ... وماذا يتم في الحياة بدون مخاطر ، أليسـت الحياة مغامرة ومخاطر ، ثم إن رب الإسماعيلية هو رب اسطنها وغير اسطنها ... وإذا كنا نتحدث عن الرب ، أتراه يرضي عن مثـل هـذه الأفعال ؟ .. حتى وإن كان الظاهر غير مُرضٍ ، فإن النيـة طيبـة ، أليس الله يحاسب علي النوايا ؟ ... ولكن المجموعة تضم عمر ، ورغم أننا تزاملنا في كثير من الأوقات ، وكان شريك الكثير من الأعمال التي قمنا بها في صبانا ، إلا أنني دائماً أشعر بعدم الارتياح له ، ولسـت أدري السبب الحقيقي لذلك .... ولكن عبد الفتاح سيكون معنا وهو الذي سيكون التعامل معه أساساً ، فمالي وعمر ؟! .]

طال به التفكير والجدال ، لكنه كلما نظر إلي ناريمان الصغيرة وكيف أنه أصبح لا يستطيع تدبير أمر معيشتها ، مال به الرأي نحو قبول عرض عبد الفتاح ، لكنه قرر ألا يخبر ناريمان بأعمال المجموعة ، وليكن ذهابه إلي البلدة أمامها أنه قد وجد عملاً تجارياً مشتركاً مع بعض الأصدقاء القدامي في بلدته سوف يستطيع به أن يعيد تعمير المحل الذي تركه الحاج مصطفي أمانة في يديه ، وأنه لا يستطيع التفريط في الأمانة ، وكانت تلك هي الحجة الوحيدة التي جعلت ناريمان توافق علي سفره .

***

وفي اليوم الثالث امتدت جلسة التفسير إلي ما بعد صلاة العصر، فحكى الشيخ محمد المتولي قال ،

رأيت خير اللهم اجعله خير أنه بينما كنا في موسم جمع لطع الدودة من القطن، وهو الذي لا يكون لدي في الكُتّاب إلا بعض الأولاد الذين لا يشتركون في عمليات الجمع ، وبعد أن كنت قد انتهيت من تَسّميع الربع الرابع من سوره هود للأولاد وبدأت في تصحيح بعض مسائل واجب الحساب التي كلفتهم بها في اليوم السابق وإذ بميكروفون يطوف شوارع القرية معلناً أن النقاوة غداً ستكون في حقول عبد الفتاح

وأنه سيبدأ من الغد عهد جديد يساعد فيه الفلاحون بعضهم البعض ، إذ يبدأ جمع اللطع في الغد في حقول عبد الفتاح ، وبعد أن تنتهي حقــول عْبد الفتاح سينتقل الأولاد والبنات إلي حقول الشيخ أحمد يحيي وبعدها ينتقلون إلي حوض البكايرة وهكذا ، وعلي الحاضر أن يُعلم الغائــب بأنه علي جميع الأولاد والبنات من سن السادسة ألي سن الخامسة عشر التجمع أمام مزرعة السيد عبد الفتاح المجاورة لكُتَّاب القرية في السابعة صباحاً ولن يسمح لأحد بالتخلف إلا للذين التحقوا بكُتَّاب الشيخ محمــد حيث العلم نور ، ولم تكد الساعة تصل السابعة من صباح اليوم التــالي إذا بعدد مهول من الأولاد في شبه هجوم علي الكُتَّاب وكأنــه هجــوم الجراد ، حتى أولئك الذين تخطوا سن الكُتَّاب والمفروض أنهــم قــد ألحقوا بالمدارس الابتدائية والذين بُح صوتي مــع أهــاليهم لإلحــاقهم بالكُتَّاب من فترة طويلة ، بل استطعت أن أميز وسط هذا العــدد ابــن أخت عاصم بيه وحفيد الشيخ أحمد يحيي ، وثلاثة من أولاد النــويهي الخمسة ، واثنان من أولاد العليمي ، وابن إحسان الخبازة وابــن عبــد الرحيم الطعمجي وغيرهم كثير وكثير حتى امتلأ بهم صــحن الكُتَّــاب وازدحم ، فافترش بعضهم الأرض خارج الحيطان واعتلــي آخــرون أسوار مصنع الألبان بتاع عبد الفتاح الملاصق للكُتَّاب مما أوقع قلبــي في ركبي ، وحاولت أن أمنعهم لكني لم أفلح ، واضطرني إلي البحــث عن ميكروفون حتى يسمع الجميع ما أقول ، وطلبت مــن الجميــع أن

يكتب ما أمليه ، وبالطبع لم أكن أعلم من منهم يستطيع الكتابة ومـــن لا يستطيع ، ورحت أملي عليهم درس العربي ، وبين الهــرج والمــرج سمعت الصويت والصراخ من بعيد ، أرسلت أحــد الأولاد ليســتطلع الأمر لكنه رفض بكل بجاحة ، طلبت من آخر فما كــان منــه إلا أن رفض هو الآخر ، طلبت من ثالث وما كان منه أفضل مــن ســابقيه ، تزايد الصراخ وانتشر ، وبدأت أعداد من أهل القرية يهلّون بــين مــن يجري و من يولول ومن تلطم خديها ، استطلعت الأمر فقالوا أن دودة القطن قد فقست وانتشرت كما الجراد علي غيطــان القطــن فأحالتــه عيدان حطب بدون أوراق وزحفت نحو البرسيم وأوشكت علي تجريــد الأرض منها هي الأخرى ، قلت يا لطيف الألطاف نجنا مما نخــاف ، ورأيت البعض يزحف نحو بيت الشيخ أحمد يحيي لســؤاله أن يفعــل شيئاً ، والبعض يتجه نحو مصنع الألبان وحظيرة المواشي والــدواجن لعبد الفتاح ، فخرج رجاله لمواجهتهم بالعصـــي والبنــادق ، فتراجــع الجميع في خوف ، وإذا بالأولاد يتحولون إلي ديدان تزحف ، ارتعبــتُ وأخذت أصرخ بأعلى صوتي ولا من مجيب ، حتــى رأيــت الديــدان تزحف تجاه مصنع الألبان وحظيــرة المواشـــي والــدواجن ، أطلــق الرجال العنان للكلاب التي راحت تنبح وتتقــدم وتتقهقــر والديــدان تزحف عليها ، تهجم عليها فتتلــوى الكــلاب وتتمــرغ فــي الأرض وتجرى مذعورة ، وبينما أنا في ذهول مما أري إذ بعدد مــن الديــدان

تجتاح حظيرة المواشي ، تنهش في كل ما تطاله وكأنها الجراد والعياذ بالله، حيث أصبحت أسنانه كالمناشير تقرض كل ما يواجهها في سرعة مهولة ، والمواشي في ذعر تتقلب وتطيح بأقدامها وذيولها والرجـال بالجرافات يزيحون في الديدان التي تشبثت ولا تنزاح ، حتى كانت قـد أوشكت علي نسف لحم كل ما في الحظيرة من مواشي وحولتهـا إلـي هياكل عظمية فاتجهت إلي حظيرة الطيور وكأنها تعرف طريقها جيـداً وما كادت تُجهز علي كل ما بها وأمام عجز رجال عبد الفتاح زحفت الديدان إلي مصنع الألبان وأخذت تمتص ما تبقي من ألبان لـم تـزل وتلتهم ما تم تصنيعه من جبن أو سمن حتى بات المصنع نجراً إلا من الحيطان القائمة التي لا تستطيع الديدان التهامها ، رأيت عبد الفتـاح بنفسه يلطم خديه كما الحريم ، وجلس واضعا رأسه علي يده ورجالـه من حوله يواسونه ، نظرت علي شمالي واستعذت بالله وتفلت ثلاثاً .

تأمل الشيخ محمود قليلاً ثم تلي :

{ .. فإذا جاء أمرنا جعلنا عَاليهَا سَافِلها وأمطرنا عليها حِجَارةً من سِجيلٍ مَنْضود مسومةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد .. }

صدق الله العظيم .

وما كاد الشيخ محمود يشرع في التعليق حتى كان قد ارتفع أذان العصر فتوقف الشيخ محمود عن المواصلة ، وبعدها قاموا للصلاة .

***

وفي اليوم الرابع والخامس والسابع امتدت الجلسة .... حتى
انصرفوا بعدها إلي مراقدهم ، فانتفخت بطون النساء بالبقاليل
فركلتهم بعد أن أعيتهن بقايا الذي كان يوما ...... زغاليل

إذ هم عليها قعود ..



وجد السيد نافع نفسه محمولاً علي بساطٍ من قماش غريب المنظر ، لم ير مثله من قبل ، لا هو باللين فَيُثْني وينبعج ، ولا هو بالسميك فيجف ويؤلم ، رغم جلوسه عليه ظل علي استوائه ، غريب الشفافية ، يري من خلاله ما لا يستطيع حتى رؤيته بدونه ، كأنه يكبر الأشياء ، أو يكشف عن ما لا يستطيع بعينه التي بها يري ، ذو مقبضين عن يمين وشمال ،وجد نفسه ممددا علي وقد إلتفت ساقاه وانعقدت يداه ، فلا حراك ولا فكاك ، يحمله اثنان غريبي المنظر ، أحدهما عن يمينه وآخر عن يساره ، لا هما رجلان ، ولا هما امرأتان ، لهما هيئة بشرية ، غير أن إحساسا يساوره بأنهما ليسا بشريين ، لكلٍ جناحان طول الواحد منهما يفوق المسافة مابين السماء والأرض ما أن فرداهما حتى وجد نفسه معهما يرتفعان ويسيران بسرعة أفقدته القدرة علي حسابها أو حتى تبين الأشياء من حوله ، وسرعان ما خبت الأشياء والموجودات من عينيه ، يغمره إحساس بأنهما يصعدان به إلي ما لا نهاية ، رغم أنه لا سحبا رأي ولا نجوم ولا سماء ، فضاء واسع شاسع غير محدود ، لا كلام ولا همس ولا تنفس ، كم من الوقت مر ؟ لا يدرى !! حتى بدأ يشعر بوجوده ، علي صورة لا يدريها ، لكنه بدأ يشعر ويتبين ، تبدلت عليه الأحوال بين تعب وراحة ، بين ما يشبه النوم والصحو ، بين ما يشبه السرور

والهموم ، مناظر ومشاهد تتابع ، لا يدري أيها ، أو يعلم كنهها ، راح يتأمل في صمت - وأيهما لا ينطـق - ذلـك الفضـاء الرحـب اللامحدود الممتد إلي ما لا يدركه البصر وما لا يحده النظر ، يريد يدير حواراً يستجلى به ما انبهم عليه واندفن ، في قاع التيه والتوهان ، وهو لا يدري أنائمٌ هو أم يقظان ، غير أن العجز والشلل انتاب لسانه وأقعده مقاعد أهل الكهف في كهفهم ، يود يمد شباك السؤال الشـابك علـى تلابيب لسانه الرابض في ذعر مستكين ، فيخشى أن يبادر و يـأبى أن يغادر ، بدأت حبات العرق تتساقط ، تتزايد ، بدأ يشعر بحرارة الجـو ترتفع ، نظر الذي عن يمينه للذي عن يساره ، يبدو أنه قد أوحي إليه بشيء ، من تحت جناحه فرد الذي عن يمينه يده فانتشر غطـاء يكـاد يكون غير مرئ ، بدأت الحرارة في الانخفاض ، طالت الرحلـة أم قصرت ، كم من الوقت انقضى ؟!!

علي مرمي البصر لاح من بعيد أناس لا حصر لهم عرايـا كما ولدتهم أمهاتهم ، للحظة تعجب كيف أن الجميع يقف هكذا ، خُيـل إليه أنه يستطيع تمييز رجال ونساء لكنهـا أجسـاد بنوريـة تخطـف الأبصار إلي الداخل وتشد الانتباه إلي المحتوى ، إلا أن شاغلا شـغله فلم يعد يميز رجلاً عن امرأة ، لم يطق صبرا ، لم يسـتطع تحديـد لمن يوجه السؤال ، خرجت الكلمات متلعثمة مترددة غير واضـحة ،

نظر إليه الذي عن يمينه ولاحت منه ابتسامة باهتة ، شجعه ذلك علـــي المواصلة :

من هؤلاء الذين يبدون عن قريب ؟

ضحك الذي عن يساره وأخيرا تكلم :

أتعلم أين هذا القريب ؟

شجعه ذلك علي المزيد من الشجاعة والقدرة علي الحديث :

أكاد أراه الآن بوضوح .. استطرد الذي عن يساره :

إنه علي مسيرة ألف عام مما تعدون ، ولكن لأن بصرك قد أصبح اليوم حديد ظننته قريب ، أتعلم من بدأ الرحلة عندكم الآن ؟

- من ؟!
- إنه حفيدك الذي عمر مائة عام .
- ....
- أتعلم كم يستغرق الوصول إلي هذا القريب الذي تراه ؟
- كم ؟؟؟
- نصف دقيقة بحسابات السماء لا بحساباتكم .
- ولكن لم أعرف بعد من هؤلاء ؟!
- هذه هي السماء الدنيا وهؤلاء من ينتظرون معرفـــة مـــن أي الأدوار يبدأ ون .

لم يبدو عليه أنه قد فهم شيئاً .

عاد إلي الصمت ، خشي إن هو استرسل في السؤال أن يكون قد جاوز المسموح وتخطى المحظور ، ولم يشعر متى أو كيف استقر البساط علي سطح مرمري المنظر والملمس ، كأنه لا شيء ، أيكون هذا شيء بالفعل ، أم تراه الفراغ ، ينظر منه فيري هوة سحيقة الامتداد بدون عُمدٍ تحملها ، لكن توقف حركة الأجنحة لمن علي يمينه ومن علي يساره قد أحدث تخلخلاً أعقبه ضغط كبير فحدثت له هزة عنيفة ، نظر إلي أسفل ، لم ير شيئاً غير الفراغ ، نظر حواليه ، أناس لا حصر لهم ، كل منهم يحيط به اثنان ، عن يمين وشمال ، عم صمت سحيق مخيف ، ارتدت نفسه إلي نفسه ، شعر برهبة ارتج لها وجوده ، طالت لحظة الصمت فأحسها دهراً ، الكل منشغل بذاته ، انطلقت إشارات ضوئية خاطفة سرقت ضياء العين ، كان كل من الرفيقين قد أخرج شيئاً من مكان غير مرئي صنعا به شيئاً ما ، فهم أنهما قد تلقيا الإشارات بها ، دبت حركة سريعة ، رفاق يغادرون وأناس يغادرون ، أجنحة تنفرد ، وأخري تطير ، البعض يتجه يميناً وأخر يتجه يساراً ، نطق الذي عن يمينه موجها حديثه إليه :

الآن أغادرك علي أن نلتقي عند السماء الخامسة عندما يبدأ مشواري معك ، وسوف يرافقك زميلي في رحلتك حتى يسلمك إليّ وستعرف منه التفاصيل .

وما أن انتهي من حديثه حتى نظر لمن هو علي يساره مبديا مــا يبدو أنها تحية ، لكنه كان قد اختفي .

***

أنزله الذي عن يساره ، فتخيل أنه ساقط لا محالة في تلك الهوة بلا قرار ، غير أنه ما أن هبط متحسساً حتى وجد قدماه تستقران ، اقشــعر جسده - أو ما ظنه كذلك - حينما نزل من فوق البساط الحامل لــه طوال الرحلة ، لم يستطع تحديد ما إذا كان بالفعل يقف علي قدمين أم أنه معلق في الهواء ، نظر إلي داخله ، يري كل أجزاء الجســد رؤيــا العين ، لكنه لا يشعر بشيء منها ، انتبه إلي رفيقه - الذي أصــبح وحيدا - بكل ما أوتي من قدرة علــي الإنصــات والانتبــاه ، راح الرفيق يخبره بما سوف يكون :

[... اعلم يا عبد الله يا ابن أمة الله أنه قد عُفي عنــك مــن حســاب السماء الثانية، فإنه ما من شوكة يشاكها المرء في حياتــه الأولــي إلا ويرفع بها عنه في الحياة الآخرة ، وما من معصــية يرتكبهــا المــرء ويعاقب عليها في الدنيا إلا وعفا الله عن حسابها في الآخرة ، وأنــه قد حكم عليك بالتخفيف في السماء الثالثة بحيث تكــون فيهــا متفرجــاً

وهو علي شدته إلا أنه بالرحمة وليس بالعـدل ، وسيسـتمر مكوثـك فيها ساعة كاملة ، وعند السماء الرابعة سيتم حسابك وتنال عقابـك ، فعند كل سماء تتم المحاسبة علي ما تختص به هذه السماء ، ويتـولاه خيرة الملائكة باسم الله الأعظم وبوحي منـه ، كمـا أنـه عليـك أن تسجد لله شكراً أنك ستصـل إلـي السـماوات الخامسـة والسادسـة والسابعة ولكنك لن تتجاوزهـا إلـي رؤيـة العـرش المسـتقر فـوق السـابعة ، فـلا ينالهـا إلا المقربـون ، ومـا يبلغهـا إلا الأنبيـاء والمرسلون ، وعلينا الآن مغادرة السماء الأولي فهناك مـن ينتظرنـا في الثانية ...] .

بسط الرفيق جناحيه فوجد نفسه علي أحدها ، ومـا أن هـب الرفيق حتى انخلع قلبه ، فبينما كان متأكداً من صعوده حيث في لمحـة استطاع أن يميز أولئك الذين في السماء الدنيا وهم يبدون أسفل منه ، انتابه شعور بالهبوط و بدأت الحرارة في الازدياد من جديد وبدأ العرق غزيرا غير أن الرفيق لم يفعل شيئاً ، بدأ الشعور بالاختناق ، طلب من القرين فعل شيء مثلما فعل قبل ذلك ، لكنه اعتذر لأن الأمر مختلف ، فقد بدأت رحلة العقاب ، تعجب من قوله متسائلاً :

ألم تقل أنه قد أُعفي عني في السماء الثانية ؟

فبادره القرين : ولكنه لم يُعف عنك في السماء الثالثة .

أليست المشاهدة فقط هي الحكم في الثالثة ونحن لم نصلها بعد ؟ فلا تظنن يا رفيقي أن المشاهدة حكم هين .

راح يمسح العرق عن وجهه بكلتا يديه وما أن يجف حتى يعود من جديد وقد تساقط علي عينيه فتكتوي بنار حارقة فيسارع بتجفيفها حتى تعود من جديد ، تمني لو أن الرحلة تنتهي ، غير أنه لم يستطع تحديد كم من الوقت مر ، رأي علي البعد أناساً تصرخ وآخرين يتألمون في صمت وبدأت الرؤى تبين عن مناظر متعددة .

انخلع قلبه عندما حط الرفيق الرحال معلناً وصولهم إلي السماء الثالثة ، وما أن استقرا علي تلك السماء حتى سمع صوتاً غير معلوم المصدرَ يقول ، وكأنه الرعد الصارخ فيزلزل كل ما تبقي منه بعد الذبول :

[اعلموا أيها القادمون أن ما فات قد فات وانقضي ولن يعود ، وما قدمتم لأنفسكم تجدوه ، ولو كان مثقال ذرة ، و أنكم قد ابتعدتم خطوة أخري عن الحياة الدنيا ، بعد أن تخطيتم السماء الثانية وحُوسبتم فيها علي ما اقترفتموه لأنفسكم ، وأديتم ما كُتب عليكم فيها ، وها هي السماء الثالثة والتي ستحاسبون فيها عما فعلتم بالآخرين ، وسوف تؤدون ما كُتب عليكم فيها كذلك ، وبعدها يكون أمامكم السماء الرابعة والتي ستحاسبون فيها عن تقصيركم في حق ربكم ، واعلموا أنه من كتب له الصعود إلي سماوات النعيم فهو لابد واصلها ، وكل من

نطق الشهادتين لابد واصلها ، وما تنالونه هنا هو ما قدمتم لأنفسكم جزاءً وفاقاً ، وما ربكم بظلام للعبيد ، وأنه في هذه السماء تكون المحاكمة أمام الجميع وسيتعرف عليكم فيها وتتعرفون علي من اقترفتم في حقهم ما استوجب محاسبتكم عليه ممن يوجدون علي هذه السماء وليسوا في تأدية لعقاب أو حتى في مشاهدة لعذاب ، حتى يعلم الجميع أن كل شيء في كتاب مبين، وصدق ربكم إذ قال ولم يزل قوله لصدق : - [(ويقولون يا ويلتنا مَالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) صدق الله العظيم .]

وما أن انتهي الصوت حتى تعرف السيد نافع علي عبد الفتاح محمولاً علي جناح قرينه ، شديد صفار الوجه ، شديد بياض الشعر مُغبِرَه ، شديد هُزال البدن ، كأنه خارج للحظته من قبره إلي أن استقر في قفص قد دنت منه الشمس حتى كادت تلامسه فبان كأنها تصب عليه لهيبها الذي أغرقه في عرق كأنه الفيضان وكأن الشمس ما طالت غيره ، و وجد السيد نافع نفسه بين جموع لا حصر لها وقد اصطفوا متراصين في صفوف لا متناهية الأطراف ، وانتصبت أمامهم منصة جلس عليها ثلاثة ليسوا إلا ملائكة مكرمين حيث أجسادهم نورانية ، تشع نوراً قمريا كأن الواحد منهم البدر في ليل اكتماله ، يسحر العيون مرآهم ، ويخلب الألباب سحر يضفيه عليهم وقار وهيبة ، و لولا أن

أوسطهم يميل إلي الطول قليلاً عن الآخَرين لما استطاع التمييز بينهم ، تتضح البراءة في عيونهم ، وتسطع السماحة في وجـوههم ، تضـفي رؤيتهم الطمأنينة علي ناظريهم ، يحار الرائي ، كيف بهـم محكمـي النعيم ، إذا ما كانوا هؤلاء محكمي الجحيم ؟!

نطق أوسطهم فكان لصوته سحر و كأنه يصدح بأعذب الألحان ، فينسي السامع ما به من رعب ويسري فيه نشوة تنسيه ما هـو عليـه مُقدم .

انخر ست الألسن واشرأبت الأذان وشخصت الأبصار وانتبهـت الحواس ، تحول الحضور إلي كتلة صماء من الأحاسيس ناسية ما كان وما سيكون إلا ما هو كائن ، فقال :

{ بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا رحمن قبله ولا رحيم بعده فباسـمه ومن اسمه يتم الحساب وينفذ العقاب ، والصلاة والسلام علي رسـوله محمد الذي وصفه ربه الرءوف الرحيم والذي أنذر فأعذر ، وحذر كل من تكبّر وتجبر ونسي أن الله أكبر .

نبدأ بمحاكمة المدعو عبد الفتاح بن المـدعوة صـباح ، الـذي انتسب إلي اسم من أسماء الله التي ترتج لها جنبات الأراضـين السـبع والسماوات السبع ويخشع لها الجماد والنبات والملائكة وقليل من الناس كل مساء وصباح ، وعلي قرين الشمال أن يقدم ما سجل فـي سـجل الأعمال وسطر . }

فتح قرين الشمال كتاباً في حجم عقلة الإصبع ، وراح يعـدد مـا سُجل فيه من مآثم ويتلو ما استقر بين صفحاته من مظالم فقال :

عاش المذكور ستاً وثمانين ثانية بعمر السماوات .

تدخل كبير المحكمين قائلاً :

يفضل يا قرين الشمال أن تترجم ما دونته بتوقيتات أهـل الأرض حتى يسهل علي الذين لم يتعرفوا بعد علي توقيتات السماوات .

استطرد قرين الشمال : عاش المذكور ثلاثة وخمسين عاماً ، حيث ولد بعد ميلاد السيد المسيح بسبعة عشر وتسعمائة وألف عام ، وبعدها بستة وثلاثين عاماً تزعم آخرين ليشـكلوا مجموعـة لسـلب ثـروات الآخرين بدون وجه حق ، يحركهم حقد لا تلين له كبد ولا تنحـل لـه عقد ، مستخدمين العنف والتخويف ، والإرهاب والتحريف ، مستعينين بعيون لهم ينقلون لهم دقات قلوب الناس وهمساتهم مع أنفسهم ويعدون عليهم أنفاسهم ، فنشروا الرعب في القلوب وعدم الطمأنينة في بيـوتهم وفي جلساتهم الخاصة ، ليستطيعوا بها تخويفهم والضغط علـيهم ، ليكونوا لهم طوعا ، ولأطماعهم مغنما ، إلي الحد الذي أدي لمنعهم من صلاة العشاء بالمساجد ، وتخوف البعض كذلك من الخـروج لصـلاة الفجر ، خشية بطشهم ، وصار اسمهم بين الناس أبناء الليل ، وفـي سبيل ذلك ، كم من دم سفك وحُرْمَةٍ أُرْمِلَ وصـبي أيـتَمَ ورجـال أمْرَضَ .

وجه كبير المحكمين وجهه وحديثه إلي عبـد الفتـاح الـذي بـدا كالواقف علي جير حي فقال :

ما قولك فيما هو مكتوب ؟

راح عبد الفتاح يلم شتات نفسه ويزيح كميات المياه المتساقطة من جبينه ورأسه ويبحث عن الكلمات وهو يردد :

لماذا نولد ولا نجد قوت يوم واحد ، وهم لا يعرفون كيـف وأيـن يصرفون من أموالهم ؟ لماذا نعمل فـي الأرض ، نفلحهـا ونرويهـا بعرقنا وهم الذين لهم المحصول ؟ مع أن الكثيرين منهم ليسوا أساسـاً من بني جلدتنا ، بل دخلاء علينا ؟ إن كل ما فعلناه لـم يكـن سـوي الحصول علي حقنا منهم ، كما أنني لم أكن وحدي حتى أسـتأثر بمـا حصلنا عليه منهم ، فكان معي كثيرون وتزايد عددهم يوماً بعـد يـوم حتى تزايد عدد المستفيدين مما حصلنا عليه ، كما أنني كنت أنتوي أن يحصل كل علي احتياجه بعد أن نكون ما يساعد علي التوزيـع حتـى يحصل كل واحد علي نصيب طيب يمكن أن يقيم له ما يمكنه من عيشة محترمة .

فرد كبير المحكمين : أتعترض علي حكمة الله وتتدخل في شئونه ؟

- إن الله لا يرضي بالظلم لعباده .
- ومن قال أن في هذا ظلم للعباد ؟ أليس هـو الـذي يـوزع الرزق وجعله أشكالاً وأنواعاً فهذا يعطيه المال وهذا يعطيـه

الصحة وذاك يعطيه الزوجة الصالحة وآخر يمنحه راحة البال ، فهل علمت دخائلهم وعرفت ما أُخذ منهم مقابـل مـنحهم المال ، ألم يعطك الصحة التي بها تستطيع أن تعمل وتحصل علي ما حصلوا عليه ؟ ألم يمنحك النوم باستغراق ......

- لم أكن أنام وأنا أري هذه المفارقات و ....
- أولاً يجب أن نتعلم الأدب في الحديث ، فلا تقـاطعني وأنـا أتحدث ، ألا تري أنني وأنا الذي أحاكمك منحتـك الفرصـة كاملة ولم أقاطعك وتركتك تقول كل ما تراه دفاعاً عن نفسـك ؟ ثانياً إنك لم تستطع النوم لأن الحقد هو الذي ملأ قلبـك و أطار النوم من عينك ، ثالثاً لو كنت قرأت كتاب الله المُنـزَل إليكم لعلمت أنه قال فيه عز من قائل :{ .. ورفعنا بعضـهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربـك خيرٌ مما يجمعون .. } .
- أيعني هذا أن أستسلم لما يفعلونه ويغتصـبونه مـن عرقنـا وجهدنا وأقول أن الله أراد ذلك ؟
- مرة أخري أحذرك من سوء الأدب ، وأن تتكلم عن أحكـام الله وأقواله بأفضل من هذا وإلا ..
- حاشى لله ، لم أقصد ولكني لم أتعلم كيفية الحديث في الوقت المناسب ولا المكان المناسب ولا والوقوف أمام الله .

- ولا حتى معاملة رجاله وحاملي كلماته وأحكامه ، ألست الذي كلف بقتل الشيخ محمود الحسيني وهو أحد رجال الله ؟
- لم أطلب ذلك إلا بعد أن كان قد أصبح خطراً علينا ، رغم أننا في البداية كنا نكن له كل الاحترام والتبجيل .
- طالما لم يكن منه خطر عليكم ، ولكن ما أن بدأ يوقظ النــاس ويحذرهم من أخطاركم حتى انقلبتم عليه بطــريقتكم الســهلة وهي القتل ، أمام أناس لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم ، فلم يكونوا يملكون أسلحة مثلما تملكون ، ولا قــوة وســطوة مثلما تملكون ، ولكن لو بادلتموهم حواراً بحــوار لكانــت الغلبة لهم ، ولكنكم لا تملكون القدرة علي الحوار وســيطرت عليكم قوتكم الغاشمة فحكّمتموها فيما رأيتموه أنتم فقط .
- لم نكن نملك الوسيلة التي بها نتحدث إلي الناس ولم يكن لدينا من وسيلة لفرض سيطرتنا علي هؤلاء سوي فــرض الواقــع بالقوة .
- ومن وسائل القوة قتل النفس التي حرم الله قتلها ، ألا تعلم كم نفساً قتلتم ؟
- كان عمر هؤلاء قد انتهي ، أليس لكل أجل كتاب ؟
- ولكن الله وحده هو الذي يحدد الآجال وليس أنت ، وإلا لو قال كل واحد أن الله هو الذي أراد وقتل من شــاء مــن عبــاده

لأصبحت الدنيا فوضي ، وما أرادها الله فوضي ولكن أرسل الرسل والأنبياء ليرشدوا الناس ، ولينظموا حركة حياتهم ، ومن ضمن ما طلبوه من الناس نهيهم عن قتل النفس إلا بالحق ، وأنتم عقدتم النية ونحن هنا نحاسب علي النية مثلما نحاسب علي الفعل .

- ولكنا اعتبرنا قتلهم حق للوصل إلي العدل وتوزيع الأنصبة .
- الأنصبة المنهوبة ليست حقاً ، وكل ما يُفعلْ من أجل الباطل فهو باطل .
- ....

لاحظ الجميع ومضة خاطفة فنظر كبير المحكمين في شيء أمامه وسجل شيئاً في الأوراق الموضوعة أمامه ، ثم عاد ونظر إلي عبد الفتاح واستأنف الحديث : ننتقل إلي موضوع ترويع الناس وبث عدم الطمأنينة في القلوب ، ما قولك فيما هو منسوب إليك بشأن بث عيونك بين الناس وتقصي أقوالهم وعد أنفاسهم وعقاب كل من يفكر في التفكير فيكم وما تعملونه ، حتى لو لم يقم عليه ، وأعطيت لرجالك فرصة استغلال ذلك في الانتقام ممن يريد و استغلال ذلك في أغراض حقيرة ؟

- لم أكن أنا الذي أمر بذلك .
- ولكنهم ما فعلوه إلا إرضاء لك وحرصاً عليك .

- أليست كل نفس بما كسبت رهينة ؟
- ولكنك علمت كثيراً مما حدث ولم تعترض ، ثم ألم تكن أنت الزعيم الآمر الناهي ، إذن فأنت المسئول عما يفعلون .
- طالما لم أكن أعلم فأري أنهم هم الذين يحاسبون علي ذلك .
- ألا تعلم أن كل من يقتني شيئاً يكون عليه ما يقع منها ، و أن من يربي الكلب العقور ببيته ، يصبح كل بلاء الناس من صاحب الكلب . إذن فوزر كل ما فعلوه باسمك من مظالم ومثالب تتحمل أنت وزره قبلهم
- ....
- وجاءت ومضة أخري علي أثرها دون كبير المحكمين شيئاً في الأوراق أمامه ثم نظر إلي قرين الشمال وسأله : النقطة التالية . فعاد قرين الشمال إلي فتح الكتاب وقرأ :

ساهم المذكور وعضد تجارة الأفيون الذي خدر الناس فاستناموا واستسلموا للأحلام والأوهام ، في نومهم وصحوهم ، فتركوا فلاحة الأرض التي أجدبت وتحجرت ، فمنع الناس خضرة الأرض التي عاشوا عليها سنيناً طويلة منها يأكلون وعليها يعيشون ، تركوا الفطرة و بدأوا يستسلمون لما صنعته يد البشر من عُرْبٍ ومن عجم ، ومتحالفين مع من كان ينادي بأن الدين أفيون الشعوب ، وإن كان نوع الأفيون قد اختلف .

اتجه كبير المحكمين إلي عبد الفتاح من جديد موجهاً حديثه . ومـــاذا تقول في ذلك ؟

حاول عبد الفتاح أن يزيح كميات جديدة من العرق المتزايد بكـــف يده بينما يعصر مركز التذكر في رأسه ويتوسل إلي لسانه كي يتحرك :

- لم أشرب في حياتي أي مخدر ، فكيف لي أن أتاجر أو أساعد في تجارة الأفيون ؟ لم أسمع بذلك من قبل ، أما عن الأرض وتحجرها فقد رأيت الناس عاشـــت طـــويلاً تفلـــح الأرض ، وعاشوا بالرغم من ذلك عيشة الفقـــراء ، وعاشـــوا طـــوال عمرهم في أكواخ وعشش من القـــش والطـــوب فـــأردت أن يعيشوا في بيوت أرقي وأنظف .
- لم يقل أحدٌ أنك تاجرت في الأفيون فكن دقيقاً فـــي تعبيـــرك ، وإنما ما وجهَ لكَ أنك ساعدت علي تجارته ، وليس بالضرورة أن يكون الأفيون هو ما يُؤكل أو يشرب ، وإنما ما يؤدي إلي مفعوله من تنويم للناس كأنهم يتعاطونه وهذا بالضبط ما كان يعنيه أصحاب نظرية (الدين أفيون الشعوب) ، وهم الـــذين اتخذتموهم قدوة وأئمة ، وقد أخذتم منهم الفكر فسعيتم إلـــي أن يعيش الناس مخدرين بفعل ما بثه رجالك فيهم من أوهـــام وأحلام ، كانت مرعبة للبعض وردية لآخرين ، فغابوا عن الوعي وناموا واستناموا عن الفعل والحركة منتظرين ما يقدم

إليهم من فعل الآخرين ، فتفرغ الكثيرون منهم للبحث عن وسيلة لإرضائك ورجالك ، مما ساعد علي وقوع الكثير منهم في الدس إلي بعضهم البعض ، والوشاية بالآخرين حتى يكونوا هم المقربون ، فخَرِبتْ النفوس ، وماتت الضمائر ، وعم الفساد المتخفي الذي طال أمده بعد ذلك حتى خرج عن الطوق وأصبح شيئاً عادياً فلم يعد منه استحياء أو وجل ، ولا عليه خجل ، وانزرع ذلك في نفوس الأجيال المتتالية جيلاً بعد جيل ، فإنه وإن استشري بعد رحيلك ، لكنك واضعُ بذرتها ، ومغذي تربتها ، وما كان بعد ذلك إنما هو الثمرة والفروع ، ألم تر إلي الثمرة تغرسها شوكاً فتنبت شوكا .

- لقد تعبت سيدي ولم أعد أطيق الشمس وحرارتها ، فهل لكم أن تفعلوا شيئاً من أجلي أو تعجلوا بإنهاء الحساب ؟
- ليس أنت الذي يحدد نهاية الحساب ، بل لابد أن يتم كما هو مقدر ، أما ما تفعله الشمس فلا مهرب منه وقد أُخبرت به في دنياك فلم تعمل لها ، فإن ذلك هو ما فعلته بنفسك . ثم توجه بالحديث إلي قرين الشمال ، وماذا بعد ؟ فتح قرين الشمال الكتاب من جديد وأخذ يقرأ :

في داخل المجموعة التي كونها كان الغدر رفيقه ونكران الفضل صديقه ، لم يحفظ للود فضيلة ، ولم يكن عنده للعهد وسيلة ، تعاهد

معهم علي الخير والشر ، وسرعان ما أطاح بهم عنـــدما اســـتقر لـــه الأمر ، تخلص من كل معارضيه ، ولم يبق إلا علي من يُســمعه مـــا يرضيه ، بيده قتل من عارضه ، ومن كان بعيدا أرســـل إليــه مـــن أمرضه ، فألزمه كَنّهُ وأقبره خُنّه ، لم يسمع للآخر رأيـــاً ، ولا أعـــار ناصح أذناً ، انفرد ولم يسمع غير نفسه ، وكان الـــديكتاتور المســـتبد برأيه ، وأضاع أموال رفاقه في ما يبتغي رفعـــة شـــأنه ، أولاً لـــدي الآخرين وليرفع اسمه عند أهل السلطة فبني لنفسه مجداً علي حســـاب رفاقه ، وهو ما كان من شأنه لو وزع عليهم لكان كفاهم وأغناهم وهو ما يدعي أنه كان ينتظر حدوثه ليوزع ما جمع عليهم .

أدار كبير المحكمين رأسه لعبد الفتاح وسأل : وما تقول في ذلك أيضاً ؟

- لقد كنت أوسع منهم معرفة وأكثر إدراكاً ، أحط بمـــا لـــم يحيطوا به علماً ، فكنت أري ما لم يروه ، وعندما كان الواحـــد مـــنهم يصر علي غير علم ويتمسك به ، كان لا بد أن يبتعد أحدنا

- وكان لا بد أن يكون هذا الواحد هو الآخر لا أنت بالطبع !
- لقد كنت قائد المجموعة ، وابتعاد القائد معناه تفتت المجموعة بالكامل ، فهل نضحي بالفرد أم بالمجموعة ؟
- ومن ولاك قائدا علي المجموعة ؟
- هم الذين اختاروني وارتضوا بي قائداً عليهم .

- أكانوا أحراراً حينما كانوا يختـــارون ؟ ألـــم يكـــن الخـــوف وتزوير الإرادة هو الذي يقودهم ويحدد مسارات حياتهم ؟
- المهم أنهم اختاروا وعليهم تقع مسئولية الاختيار .
- ألا تعلم أن ما أُخذ بسيف الحياء هو حرام ، وما أُخذ بســيف القهر هو اغتصاب ، وما أُخذ بسيف التزوير هو باطل ؟
- لقد أنهكتُ وأعياني طول الوقوف ، ولم أعــد أطيــق حرقــة الشمس ، وربما كان وقوع البلاء أهون من انتظاره ، ولقــد رضيت بما تحكمون به .
- وما قولك في الأموال التي لــو أُحســن اســتخدامها لكفــت المجموعة وكانت تكفي لتنفيذ ما وعدت به ، ألم تهدر أمـــوال الغير بما فعلت ؟
- ما كان للمجموعة أن تقوم وتستمر لولا ما فعلته ، فما كانــت الشرطة مثلاً لتغمض عينها عنا لو لم أملأ عينيها وأسد فمها ، تطبيقاً للقول أطعم الفُم تستحي العين ، كما كان لا بد أن أدفع لرجال من خارج المجموعة ، بل ومن خارج المنطقــة كــي يكونوا لنا عيونا ومساعدين خارج المنطقة لتسهيل أعمالنا في تلك المناطق خارج حدود عملنا ، كما أنهم يساعدون في بــث الرهبة في نفوس أهل تلك المناطق ورسم صورة لنا تســاعد كثيراً في تأدية مهامنا .

- ألم يكن الأولي أن يقتصر نشاطكم علي منطقـتكم أولاً ومـا جمعتموه يكفي لإشباع رجالك وتحقيق ما كنتم تحلمون بـه ، وكان يكفي الآخرين شروركم ، لقد كانت أحلامـك واسـعة بأكبر من مقدرتكم ، وإذا لم يكن بمقـدور الإنسـان تحقيـق أحلامه علي أرض الواقع ، أصبحت الأحلام أوهاما وجـرت علي الإنسان خيبة الأمال والقعود عن الأعمال ، وقد جُـرت هذه الأحلام الوبال علي الآخرين ، فلا أنت أشـبعت رجالـك ووفيتهم أنصبتهم ، ولا أنت أغنيت الآخرين عن الاشتراك في شركم وشروركم .

ولاحت ومضة كالبرق خطفت الأبصار ، نظر كبير المحكمين في الجهاز الصغير بين يديه ، همس بشيء إلي رفيقيه عن اليمـين وعـن الشمال ، نظر إلي عبد الفتاح نظرة سريعة ، ثم توجه ناحية الجمـوع المتراصة أمامه وتلي : -

بسم الله الرحمن الرحيم القائل : " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكمـوا بالعدل " ، والقائل : " ما فرطنا في الكتاب من شيء "

سبحانه وتعالي أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، باسمه الأعظم تمـت مناقشة المدعو عبد الفتاح بن صباح من واقع ما سُجل بكتابه وما يقـع في اختصاص السماء الثالثة ، ما ارتكبه المدعو في حق الآخرين فقط ، وما تم عرضه عليه لبعض أفعاله ، وتبيان لبعض أقوالـه ، وأعطينـاه

فرصة الدفاع رحمة من الرحمن ، وكان الأصـل أن تعـرض عليـه أعماله ، وتتلي عليه أحكامه ، فقد وضعت الأقلام وجفـت الصـحف ، غير أن الله أراد به العبرة ، ولغيره الخبرة ، وبوحي من الله جل شأنه وقضت حكمته ، وبعد خصم ما عاناه المذكور في دنياه مـن مـرض وغير ذلك ، وخصم ما قد يكون ناله من عقاب دنيوي ، فقـد قضـت حكمته بأن يقضي المذكور في هذه السماء أربعاً وعشرين ساعة بعمـر السماوات يقضيها علي النحو التالي : -

أولاً - فيما يختص بقتل الأرواح المقهورة والمغلوبة علـي أمرهـا والتي لم يكن لها وسيلة الدفاع عـن نفسـها أمـام تحكماتـه الجـائرة وتقديراته الخاطئة مما أهدر أنفساً بريئة ، أدت إلي خراب الكثير مـن البيوت ، وترميل الكثير من النساء ، و مما ساعد في انحراف هاتيـك النسوة وإشاعة الرذيلة ، وتيتيم وتشريد الكثير مـن الأطفـال ، وأدي وانعكس علي النفس البشرية بالتعود علي اليأس والإحباط واللامبالاة .

يقضي المذكور ساعة يعاني فيها سكرات الموت ، بحيـث تصل الروح إلي الحلقوم ، ثم تعاوده الحياة من جديد ، وعلي أن تـتم دورة كاملة كل خمس دقائق .

ثانياً - فيما يختص باستيلاء المذكور مع آخرين علي أمـوال الغيـر بدافع من الحقد والكراهية وتمني زوال ما في يد الغير بـزعم إعـادة توزيعها ، مما حرم به الفطرة التي فطر الناس عليها وبما فـيهم مـن

غريزة التملك ، وحيث لم يثبت علي الغير امتلاكه لما تملك بغير حــق إلا أنه ميراث من الآباء و الأجداد ، كما أن المذكور استأثر بها لنفسه دون رفاقه ، فلا هو أغني بها رفاقه كما زعم ، ولا هو أبقــي عليهــا لأصحابها ، فكان كالمُنْبَتِ ، لا أرضاً قطــع ولا ظهــراً أبقــي ، ولأن الحساب يتم علي النيات كما يتم علي الأفعال ، لذا يكون الحكم مخففــاً ويكتفي فيه بوقوف المذكور ساعة كاملة علي قدميه أمام أبواب السماء السابعة ، يتلظى بنار الشمس الحارقة ، يعاني الظمأ ويسأل أهل السماء السابعة المنعمين أن يفيضوا عليه مما أفاء الله عليهم فيأبوا أن يمنحوه شربة من ماء الكوثر .

ثالثاً – فيما يتعلق بإنفاق المذكور لأموال لا يملكها وإسرافه وبذخــه فيها لتكوين اسم له لدي السلطات وأصحاب القدرة علي تمكينــه مــن الغير وما سمي بالرشوة لتسهيل أعمــال غيــر مشــروعة ، اشــتري المذكور ذمم الآخرين مما أدي إلي تخريب الــنفس البشــرية وأشــاع الأساليب التحتية ، متناسياً أو لم يسع إلي معرفة الحديث الــذي أورده الرسول المرسل إليهم ، محمد صلي الله عليه وسلم والذي يخبر فيــه عن محاسبة الله للناس عن أموالهم ، من أين اكتسبوه وفيمــا أنفقــوه ، وفي كلا الحالين ، هو آثم ولذا :

يعاقب المذكور لمدة ساعتين ، ساعة يأكل فيها مــن شــجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، وساعة أخري يعاني فيهــا مــن

الإخراج ، سعياً بين مسافتين يعادل البعد بينهما البعد بين السماء الأولي والأرض ، ينساب فيها إخراجه علي ساقيه بحرارة تعادل درجة حرارة الشمس عندما تكون علي بعد من الأرض مساوٍ لبعدها عـن القمـر ، وتتصاعد منه الرائحة الكريهة التي تعادل رائحة سبعة كلاب ماتت منذ سبع ساعات ، بتوقيت الأرض ، علي مرآي ممن يعرفونه مـن أهـل الأرض ويتواجدون في السماء الثالثة حين تنفيذ العقاب .

رابعاً - فيما يختص ببث الرعب والهلع في قلوب الناس بمـا أحدثـه من أعمال تخويف للناس علـي أرواحهـم وممتلكـاتهم وعرضـهم ، مستخدما العنف الجماعي في مواجهة القدرات الفردية المحدودة وغيـر المدربة ، وغير المسلحة بحيث لم يكـن بمكنتهـا الـدفاع عـن هـذه المحرمات ، وما أدي إليه من اهتزاز الثقة وزعزعة الأمـان النفسـي وبالتالي يعتبر أعمال تخريب للنفس البشـرية التـي خلقهـا الله علـي الاستواء ، خاصة ضد من نطق شهادة تُعَرِف بما اقترفوه ، من أمثال الشيخ محمود الحسيني شيخ مسجد القرية .

يعاقب المذكور بالحبس مدة ست ساعات في حجرة جدرانها من أشواك وأرضها من حطام الزجاج وسقفها من لهب ، تهاجمـه فيهـا الكـلاب تنهش أعضاءه ، ويعاني فيها الرعب والخوف والانهيار المستمر طوال مدة ثلاث ساعات ، وتهاجمه الحيات والثعابين مدة ثلاث ساعات أخري تلدغه فيسري السم في دمه بمسيرة ربع الساعة في كل دورة .

خامســاً – فيما يختص بالتجسس علي أفعال الغير ، وتتبع عــوراتهم ودخائل أنفسهم ، وعد أنفاسهم ، واستغلال ذلك فـــي الســـيطرة علـــي تحركاتهم وتصرفاتهم وقطع ألسنتهم ، في بث الخوف فـــي القلـــوب ، والرهبة في الضمائر ، والوهن في العزيمة ، والقعود عــن الفعــل ، بعد أن جعل الأخ يخشى وشاية أخيــه ، والابــن لأبيــه ، وزرع آذان للجدران ، وعيون أخري للإنسان ، فأدي لتفشي الوصولية ، وسيادة النفعية المادية ، والخوف من الروحانية ، التــي دعــا إليهــا رســول البشرية ، وأصبح الاعتماد علي أهل الثقة دون أهل الخبرة والحكمــة ، وأدي إلي التواكل ، وانهزام روح العمل والفضائل ، وبث اليــأس فـــي النفوس ، من كل أمل في إصلاح ، فصارت الحياة كالكابوس ، امتدت لأجيال وأجيال ، مما يصعب معه الخلاص في عاجل الحــال ، ممــا يوقع عليه قول الحديث الذي يعني ، أن كل من سن سنة حســنة فلــه أجرها وأجر من عمل بها إلي يوم القيامة ، وكل من سن ســنة ســيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلي يوم القيامة ، لذا فعقابه يكــون مضاعفاً بقضاء أربعة عشر ساعة في نـــار الســـعير ، تشـــوي فيهـــا أعضاؤه وتكوي جبهته ، وكلما نضج جلده ، يبدل بجلد حيّ ليبدأ دورة جديدة بحيث يتم سبع دورات في الساعة الواحدة .

***

نظر الجميع فإذا بالمنصة ترتفع وتصعد بعيداً بعيداً حتـــى تتواري عن الأنظار، ويرفع القفص الذي كان يحيط بعبد الفتاح ويرتفع هو الآخر بعيداً بينما يقترب قرين الشمال من عبد الفتـــاح ، لا ليحملـــه هذه المرة ، بل يسوقه ، بينما يتعثر هو، وكلما انكب علي وجهه أسرع بالوقوف والعدو من جديد ، راح الجمع ينفض ، مُحَمَّلين علي أجنحـــة قرنائهم ، واستقر آخرون ، استطاع السيد نافع أن يميز منهم حســـين ومحيي وكثيرون يعرفهم لكنه لا يذكر أسماءهم ، راح الجميـــع يتـــابع رحلة عبد الفتاح الذي أخذ يهرول حتي استقر في مـــا يشـــبه الحجـــرة الزجاجية الشفافة والتي من شفافيتها تُري و لا تُري ، كأنها الهـــواء ، موجود لكن أحدا لا يستطيع الإمساك به ، وكأنها بنيت مما بُنيت منـــه السماء ذاتها ، ملموسة وغير مرئية ، ليظهر وجه عبد الفتـــاح الـــذي وضحت كل معالمه وأعضائه وقد اقتربت منه الشمس حتـــى كـــادت تلامس رأسه ، بدأت الشمس تصب أشعتها فتنسال علي الجلد الذي بدأ يحترق وتفوح منه رائحة الشواء وتتصاعد منه أدخنة الاحتراق ، بينما يتحول العرق المتساقط غزيراً إلي ماء نار تشوي الوجوه وتزيد الجلـــد التهاباً ، ترتفع المياه من حوله ، تتخلل إلي داخل الجســـد الشـــفاف المبين عما بداخله وكأنه قد قُد من زجاج ، وليظهر الدم وقـــد صـــار كالماء يجري في العروق فيصبح الجسد كوعاء يغلي وتتصـــاعد منـــه الأبخرة إلي الرأس الذي بدأت فيه الشعيرات تتســـاقط كبقايـــا الهشـــيم

المحترق المتطاير مع هبات الريح ، فتزيد النار تأججاً و تزيد تكـاثف الأدخنة لتلتف حول الوجه والعنق ، يعتصر الألـم الوجـه ، تـتقلص عضلاته ويتشكل الجلد أشكالا ما لها من معالم ، تصدر التأوهات مـن عبد الفتاح موجعة تفتت قلب السيد نافع ، يحاول أن يغمض عينيـه ، لا تنغلقان ، يحاول ، تعانده الجفون فلا تلتقيان ، يتعالى الصراخ فيفتت القلوب ، يحاول السيد نافع سد أذنيه ، يداه لا تطيعانـه ، تلـتقط أذنـه الصرخات وكأنها الصاعقة ، يبدأ عبد الفتاح رحلة الاختناق ، يبـدأ صعود الروح ، لأول مرة يري الروح ، يراها تتصاعد فـي بطـيء قاتل ، تحاول المرور وكأنها تعاني ضيقا في الممر ، تكاد تنحشر ، تبدأ من أظافر قدميه التي أخذت في التبدل الآن كيوم شتوي عاصف متقلب الأهواء ، يأخذ لونها في التغير ، غلب عليه لون الموت الأزرق الحائل الناضح برائحة الذبول ، لكنه الموت البطيء كأنه الزمن ، الضـاغط كأنه القدر ، زاحفاً ببطئه الجاثم إلي سـاتر قدميـه اللتـين اصـفرتا ونحلتا ، حتى لم يعد يُري منهما غير الجلد الناحـل ، زاحفـاً نحـو الساقين اللتين لم تعودا تحملانه ، كعيدان الذرة الذابلة العطشـى إلي الماء ، يبدأ الانهيار، يسقط علي مـا يشـبه الأرض ، يحـاول الخروج مما يعاني ، يضغط الألم ، تشخص الـدنيا متجسـدة أمـام عينيه ، يتقل بكل ما تبقي من قدرة ومن وعي ، يمر خميس فـي زى فضفاض ينظر إليه في شماتة ، يتبعه البقرى ، ينظر إليه من أعلي إلي

أسفل ، شيء ثقيل ينتزع في من أعلي الساقين ، لم يكن الموت هكذا ، رصاصة في لحظة ، وينتهي الأمر ، كم من حالة للموت شاهدها ، لم تستغرق واحدة سوي لحظة ، لقد كان يأمر بالموت وهو يعرف أن الأمر لحظة ، يمر طابور طويل ، يعرف بعضهم ويستدعي الواحد منهم سيلاً متدفقاً من الرؤى والمواقف ، تعكس عمراً عاشه وليال كان له فيها الكثير والكثير، الذي يبدو الآن طرفة ، وآخرون لا يعرفهم لكن البحث عمن يكونون ولماذا يطوفون حوله يحيل رأسه إلي خلية نحل تطن طنيناً يؤرق الساكن ويفجر الهامد ويحطم بقايا العظام الهشة ، يلمح السيد نافع علي البعد فينفرش العمر بطول الذراع فتتسرب تفاصيله واضحة كاشفة ، ينتزعه من المشهد آلاماً تفوق طاقته ، كطفل يحمل جبلاً ، رغم محاولاته للتحكم في تأوهاته المكتومة ، تخرج طلقة المدفع ، يفضحها جحوظ عينيه واحمرار أذنيه ، يحاول الهروب والتوهان ، ينادى علي السيد فينحبس الصوت متجمعا متضخما حتى ينفجر مجلجلا ومدويا ، يتصاعد تشنج محبوس ضاغط فتتقلص عضلات بطنه ، تنسحب بطيئاً بطيئاً نحو أصابعه المتشنجة التي تحاول الإمساك برقبته التي بدأت في الانتفاخ ، يصرخ الألم المتصاعد كالشوك المتشبث بنتف القطن غير المغزول لتخرج آهة عالية مريرة كأنها خارجة من قرار سحيق بعد معاناة طالت دهوراً وعصوراً في رحلة السائر في الرمال الناعمة ينتعل حذاء ثقيلا ....

ثقيلا ، فتغوص به في حفرة لا قرار لها ، يجاهد كـــي يرفـــع يديـــه فتمسكان بجانبي رقبته وكأنه يعوق شيئاً أن يخرج منها ، أو يقتل شـــيئاً يفتك بها ، كمن أمسك بثعبان غليظ يزحف تحت ردائه ، تجحظ عيناه ، وينتفخ شدقاه ، يفغر فمه عن أخره ، يخرج لسانه وكأن ثقـــلاً يفـــوق طاقته يجثم في برود علي صدره حتى يُخرج أمعـــاءه ، أتـــت نيـــران الشمس علي لحمه يأخذ في التلاشي ، يتلاشى ، حتى تبين عظامـــه مجردة من اللحم ، يصبح هيكلاً عظمياً ، غير أن بقايا أنفـــاس تحـــاول الخروج ، وما أن يشهق شهقة يسمعها أهل السماوات الأربع الأولي ، حتى تتهدل عظامه وتتمدد منفرشة دون حراك .

شعر السيد نافع وهو يري ما يحدث بدوار ينتابه و بغُصةٍ في حلقه واختناق ، وكأن الروح بلغت الحلقوم وهو لا يستطيع إرجاعها أو دفعها ، غير أن عبد الفتاح لا يلبث حتى ينهض قائماً علي قدميـــه ، ليبدأ الدورة من جديد .

***

لم يكد السيد نافع يفيق من الدورة الأولي لعبد الفتاح ، حتـــى وجد قرينه يجذبه منبهاً ، يتصاعد وجه جديد ، يتزايد الصعود تتكشف

عن ملامح يعرفها جيداً ، أليس هذا السيد عبد العظيم الذي قتل امرأته وقتل نفسه ؟ أعرف ما حدث له ودفعه إلي فعلته ، كان عمر علي علم بكل ما حدث ، بل أستطيع أن أجزم بأنه هو الذي أمر بــه ، فعنــدما عاتبته علي ذلك ، لم ينف ما حدث ، وما أكده ، غير أنني أذكر جيــدا ردوده الوقحة التي كان قد تعود عليها ، ذهبت بعدها إلي عبد الفتــاح ، وعندما استمع مني إلي القصة كاملة ، مصمص شفتاه وهــز كتفيــه ، لكنه لم يبدي اعتراضا ، وإن كان لم يبد تأييدا أيضا ، ولــم يكــن قــد قربني منه كما فعل في أخريات أيامه ، فلم أستطع فعل شيء حينهــا ، ولكن ما الذي أتي به إلي داخل القفص هكذا ؟ أتري عليه ما يجب أن يؤديه هنا ؟ أم تراه يعاقب علي قتله امرأته ؟ ولكنه كان ضحية ، ولو كنت مكانه وحدث ما حدث له ، لم أكن لأفعل بأقل مما فعــل ، لكــن الأحداث لم تدعه يسترسل في أفكاره ، فقد بدأت المنصة في التصــاعد شيئا فشيئا ، رغم أن شيئاً لا يحجب شيئاً ، ولكن ما الذي يحجبهم حتى يكون ظهورهم علي هذا النحو ؟ الله وحده أعلم ، وها هــم الملائكــة بطلعتهم النورانية يطغي ظهورهم علي الموجودات والأشياء والنــاس ، ويفرض السكون والصمت الذي لا تسمع معه الأنفاس ، ويبدأ أوســط الملائكة في الحديث ، يطلب من القرين أن يقرأ ما دون لديه .

فتح القرين ما يحمل من كتاب في حجم عقلة الإصــبع ويبــدأ فــي القراءة :

المدعو عبد العظيم بن المدعوة آمنة ، نال ما حكم به عليه في السماء الثانية ، أما ما يقع في اختصاص السماء الثالثة وما يتعلق بما اقترفه في حق الغير فينحصر في الآتي :

قرر المدعو من نفسه إزهاق روح خلقها الله بقدرته ، وتخيل أنه هو الذي يقرر ويحدد ، ناسياً أن كل ما يحدث للإنسان هو ما سبق وكتب له في اللوح المحفوظ ، وهي روح زوجته عظيمة ابنة المدعوة هنية ، وهي حامل في روح جديدة ، فقتل بذلك روحين ، علاوة علي إزهاق روحه نفسه والتي أخذ عقابه عليها في السماء الثانية ، وإن كان الله قد تفضل عليه بتخفيف العذاب مراعاة للظرف الذي دفع به لما أقدم عليه .

كذلك اشترك المذكور في مظاهرة الصمت التي سادت البلاد رغم ما رآه ولمسه بنفسه من المظالم والمآسي التي كان هو أحد ضحاياها مكتفياً بالرفض بالقلب الذي هو أضعف الإيمان ، بينما كان بمقدوره غير ذلك .

تهامس كبير المحكمين مع عضوي الميمنة والميسرة ثم توجه بالحديث إلي السيد عبد العظيم الذي بدا عليه الارتباك والدهشة :
ما قولك فيما سمعت ؟

تلعثم عبد العظيم قليلاً وكاد صـوته لا يصـل إلـي جمـوع المصطفين مما دعا كبير المحكمين إلي أن يطلب منه رفـع الصـوت فإن المحاكمة هنا علنية لحكمة يراها المولي عز وجل :

لم يكن يرد علي ذهني أن أقف هنا مداناً فيما ظننـت أننـي أنـا المجني عليّ ، فكيف كنت أتصرف بعد ما وقع عليّ من أذي من أفراد هذه المجموعة التي لم يستطع أحدٌ أن يقف في طريقها ، ألم يكن معهم البوليس الذي من المفترض أنه ما جاء إلا لحمايتنا ، فـإذا بـه يقـف لحمايتهم منا وكأننا نحن الجناة وهم الضحية .

- وإذا كان هذا ما حدث ، فماذا فعلت أنت لمقاومة هذا الظلـم وهذا الطغيان ؟ قتلت زوجتك ، وقتلت ابنك ؟
- ليس ابني ، وبالضرورة أنتم تعلمون ذلك .
- وهل تستطيع إثبات ذلك ؟
- الأمر لا يحتاج لإثبات ، ألم أبحث طويلاً وانتظرت طويلاً هذا الولد الذي لم يأت إلا بعد فعلتهم ؟
- وهل تعلم أي نطفة أنبتت الولد ؟
- ....
- ألم يسترك الله ؟ فكيف تسول لك نفسك أن تكشف ما سـتره الله ؟ ومن أدراك ماذا كان يمكن أن يفعل هذا الولد ؟ ألم يكن من الممكن أن يعبد الله ويكون ولداً صالحاً ؟ ألم يكـن مـن

الممكن أن يرفع المظالم عنك ويردع الظالمين ؟ وزوجتك ، ما جرمها ؟ أهل اشتركت بإرادتها فيما حدث ؟ ألم تكن مغلوبة علي أمرها ، والله يرفع عن عباده ما أكرهوا عليه ؟

- وكيف كنت أرفع رأسي أمام الجميع و ....
- وهل علم الجميع ما حدث ؟
- كانوا لا بد سيعلمون ، ألم يكن أبا الهول يدور في القرية يعلن في النهار ما حدث بالليل ، وما كان البعض من ضعيفي الرؤية ومحدودي الرؤى يظنونه واصلاً وبالخبايا عالماً حتى ظنوه من أولياء الله ، وهو من شرار خلق الله ؟
- وهل أنت تعامل العباد أم تعامل رب العباد ؟
- ولكنني أعيش وسط العباد ، تنعكس علي تصرفاتهم وأرائهم ، وربما تنعكس عليهم رؤيتي وتصرفاتي
- ليس ربما ، ولكن بالتأكيد ، وهذا هو ما أوقعك في المعصية الثانية المنسوبة إليك ، وهي الاشتراك في الصمت الذي دفع المجموعة لأن تتمادي في غيها ، ولو أنك قاومت لكان لك شأن آخر .
- وماذا كان بوسعي أن أعمله وحدي ، وقد عانيت ما عانيت عندما بدا مني اعتراض علي أفعالهم وكشفٍ لأستارهم ؟

- ألم يكن الشيخ محمود الحسيني إمام مسجدكم وحده عندما أصر واستمر في معارضتهم ، وقد كان يعلم ما يمكن أن يفعلوه به ؟
- إذن فكان من الممكن أن يحدث لي ما حدث له .
- حينها تكون شهيداً ، ألا تعلم أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ؟
- وماذا كنت سأقدم بموتي لدفع المظالم ، وقد كانوا لا يتورعون عن قتل الآحاد من الناس في سبيل تحقيق ما يريدون ، ولإرهاب الناس حتى يعم الخوف وتستقيم لهم أمورهم .
- ها أنت تقول الآحاد ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون قتل المئات ولا العشرات ، ثم ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجر إليها ؟ ألم يكن بمقدورك الهجرة بما قدر الله بعيداً عن أعين الجميع ، فربما كان فيه من يُقَوِّمُ اعوجاجهم - من أصلابهم - ألم تعلم ما فعل فرعون مع موسي ؟
- ولكن زمن الأنبياء انتهي .
- ولكن زمن المبشرين والمجددين لم ينته بعد ، ألا تعلم أنه يأتي علي رأس كل مائة عام من يجدد شباب الدين ؟
- وماذا أعلم أنا حتى تحملني ما لا طاقة لي به ؟

- الأمر يحتاج الفعل أكثر من أي شيء آخر ، وقد كنت تملك الفعل ، ولكنك آثرت الصمت والاستسلام ، وجهت طلقاتـك إلي صدرك وصدر زوجتك ، ولم توجهها إلـي صـدر مـن ظلمك وافتري عليك بغير شرع الله ، لقد آثـرت الاستسـلام والاستكانة .
- إنه المقدر لي ولها ، ولو لم يكن الله يريد ذلك ما كان .
- لقد قدر الله أن انقطاع خطوط الاتصال عن المخ تؤدي للوفاة ، وألا يستطيع الكائن الحي العيش بدون الهواء ، فماذا قدمت أنت ليغير الله من أجلك قوانين الأشياء ؟
- ....

برقت في الفضاء المحيط برقة ومض تهامس علي أثرهـا كبيـر المحكمين مع عضوي الميمنة والميسرة ، ثم توجه بالحديث إلي قـرين عبد العظيم :

من فوق السماوات السبع أنزل الله حكمه علي المدعو عبد العظـيم وبالرحمة حكم لا بالعدل :

فيما يختص بالذنب الأول : يمضي المذكور ثلاث دورات كـل دورة ثلاث دقائق يعاني في كل دورة سكرة من سكرات الموت .

وفيما يختص بالذنب الثاني : أن يقضي نصف ا لساعة فـي حبس انفرادي يعاني فيه آلام الوحدة ومرارتها ، لا يكلم أحداً ولا يكلمه

أحد ، ينعقد لسانه ويحاول الكلام مع من يمر عليــه ممــن يعرفونــه ويعرفهم فلا يستطيع .

ولم يكد كبير المحكمين ينطق بالأحكام حتى كانت أجنحة قــد تطايرت وتفرق الجميع كل في وجهته ، وأخذ القفص الواقف فيه السيد عبد العظيم في الاختفاء ، بينما حمله قرينه علي جناحه ، وحينها كانت دورة جديدة من دورات عبد الفتاح قد بدأت ، نقطة من لحم مــدمم ، تكبر ، تتحول إلي عظام طرية تأخذ في التكوين ، يتشكل هيكل إنسان ، يكسو اللحم العظام ، يتشكل الوجه ، تتحدد ملامح عبد الفتاح ، تقتــرب الشمس من الرأس ، كان العرق قد انهمر غزيراً علي وجه الســيد نافع الذي بدا عليه الإنهاك وكأنه هو الذي كان يعانى سكرات الموت ، شعر أن دهوراً وعصوراً قد انقضت قبل أن ينظر في يديه ليتبين أنه لا يحمل شيئاً في يديه ، ينحني علي قرين الشمال ليسأل عن ما مضــي من الوقت فيخبره الأخير أنه قد تم أداء دورة كاملة من دورات عبــد الفتاح ، انحني عليه من جديد ليسأله : أيقضي الوقت كله في متابعــة عبد الفتاح فقط أم أن له أن يتنقل وفق ما شاء ، فيخبره قرينــه أنــه إنما يوجد هنا ليشاهد ما يدور في هذه السماء من ألوان العقاب ، وأنه ما حضر حساب عبد الفتاح إلا لأن حسابه في هذه السماء تحديداً كــان يقتضي حضور كل من يتواجدون في السماء لحظة الحساب ، ولذا فإنه ليس باختياره التجول في هذه السماء وكأنه في نزهة ، مال عليه مــن

جديد ليهمس ، ولكني تعبت كثيراً لمجرد متابعـــة دورة واحـــدة مـــن سكرات الموت ، فيرد عليه قرينه ، يجب أن تتذكر دائماً وأن لا تنسي أنك هنا كنوع من العقاب ، ولست في نزهة ، وإن كنت أعلم يقينـــاً أن مشاهدة العذاب ومتابعة العقاب أحياناً تكون في قسوة ومرارة الواقـــع عليه العقاب ذاته ، فلا تتعجل فما زلنا في بدايات الطريق .

حمله قرين الشمال علي جناحه وطاف به بين جنبات الســـماء الثالثة ، يقف به دهراً ليتابع واحداً يصرخ من شـــدة الألـــم وأظفـــاره تنتزع منه واحداً بعد الأخر في بطء وأناة ، ودهراً أمام واحد يمشـــي مهرولاً والحيـــات ذوات الأجنحـــة يتطـــايرن وراءه وينهشـــن جلـــده وعظامه ، وأوقات لا يعرف حسابها أمام من يقضم لحم نفسه فيظمـــأ فيغترف من دمه عله يرتوي لكن ظمأه يزداد وجوعه يحتد فيلتهم لحمه ويشرب دمه ، وقرين الشمال يشرح ويوضح وينبه كلما غلـــب عليـــه الإغماء ويبدأ في نوبة ضياع الروح التي يتمني ألا تعود ثانية ، إلي أن دعاه لمعاودة متابعة عبد الفتاح من جديد بعد أن عاد من أمام السماء السابعة وقضي ما عليه هناك حيث تعرف علي الشـــيخ أحمـــد يحيـــي والشيخ محمود الحسيني ويأس من استجابة أيهما لتوسلاته بأن يفيضـــا عليه بشربة ماء ، فكانا يردان بأن الله حَرَمَها عليـــه فكيـــف لهمـــا أن يعصيا الله وهما في هذا النعيم الذي أنعم به عليهما . أسرع به قرينـــه

إلي السماء الثالثة ، كان جلد عبد الفتاح قد بدأ في التبدل وبانــت عليــه آثار رائحة الشواء وتتصاعد منه أدخنة الاحتراق .

***

تماهي الزمان والمكان فلم يعد السيد نافع يعرف أين هــو أو من هو ، غير أن القرين يحمله من مشهد لمشهد ، ولم يكن الألم الــذي يعانيه كلما توقف عند مشهد بأقل منه لو أنه هو الذي يقع عليه العقاب ، حتى وجد نفسه في مواجهة مع كل من عبد الفتاح وعمر ، وكل منهما يعاني سكرات دورة جديدة من دورات خروج الروح ، وكــأن روحــه تنتزع من عمق أعماقه ، فتنتزع معها كل وجوده ليتوه في غيبوبة دون غيبوبة من شدة ما يعاني وما يكابد ، وفي لحظة من لحظات الإفاقة .
تواجهت الأعين الكليلة الذليلة ، يَفِحُ منها الألم المرير والندم العسير .
علي الجباه ينضح العرق الغزير كأنه السيل المنهمر له وقع و هدير .
وهم به في شُغلٍ عن كل تعبير .

لكن تلاقي العيون ، فجر فيهم كل مخبوء ومكنون .
فراح كل يلقي علي غيره اللوم والعتاب .
بعد أن أصبح لا يغني ولا يرفع شيئاً من العذاب .

نظر عبد الفتاح إلي عمر نظرة الأسد الكسير إلي فريسة ما له بها من عير ولا نفير .

راح يهذي كأنه سكير وما هو بسكير :

تري من أنت يا من كنتَ لي علي الرزية معيناً ، فجرفتني إلي مستنقع فيه زلت قدمي وأوقعتني في جُبِ سحيق من رزاياك ؟

فسارعه عمر علي الفور :

ما أنا إلا خطيئة من خطاياك .

- إنما أنت نقمة ربي ، ونقطة ضعفي .
- ليست نقطة ضعفك إلا أنت ، في البداية كنت أنت ، وفي النهاية كنت أنت ، شُغلت بنفسك عن الجميع ، وشُغل بك الجميع ، فكان لي أن أُشغل بنفسي بعض الوقت ، الفرق أنك شُغلتَ بنفسك في العلن ، وشُغلتُ بنفسي بيني وبين نفسي .

شغلتك الأمنيات وشغلتني المخدرات والملذات .

وها نحن هنا التقينا ، جمعنا الطريق في الدنيا ، فكان لنا نفس المصير في الآخرة ، فلا متاب الآن ولا عتاب .

بطرف عينه تنبه عمر إلي السيد نافع الواقف يتابع ما يدور ، بادره علي الفور :

أتظنك ناجٍ مما يدور ، لم يكن لك من دور بيننا إلا المشاهدة ، في الدنيا وهنا أيضاً ، كم مقَتُكَ حياً ، ولكني لا أستطيع قولها هنا .

وفي حيرة بين الألم والشفقة نطق السيد نافع :

ولكني لا أستطيع الآن أن أقول أني أمقتك ، علي الرغم من أنني لم أشعر يوما نحوك بارتياح ، وقد صدق حدسي ، فلو أنني علمت من قبل ما فعلته بناريمان ، لما كنت تركتك إلا بين يدي من لا يغفـل ولا ينام ، فعلي الرغم مما كان يبدو لك من سلبيتي واستسلامي ، إلا أنك لو تعلم كانت لي أضراس و أنياب ، وكنت بها علي استعداد أن أمزق من انتهك حُرُماتي وداس مقدساتي ، ولكن ربي كفاني شـرك ، وكفـاني ذنبك ، فكنتُ عليك متفرج ، ولما صرتَ إليه متحرج ، ولكن هو عدل ربي ، وعقاب ذنبي .

ثم توجه بالحديث إلي عبد الفتاح في كثير من الأدب وكثيـر من الحسرة والندم :

عفواً عبد الفتاح ، فلا أستطيع لنفسي شيئاً ، ولكـن العتـاب والندم يُلّحان علي نفسي ، فقد نصحتك كثيراً لكنك لم تسمع نصحي إلا بعد فوات الأوان ، وما قربتني إليك ، إلا بعد ما أساء الجميـع إليـك ، سمعتهم كثيراً ، وأطربك ما حسبوه مني ذماً ، وسرك ما به مدحوك ، فكانت عاقبته أن في العذاب ألقوك ، فأدنيت منهم من ظننت به ثقـة ، وأقصيت منا من ظننت به طمعاً ونقمة ، ومـا كـان بـه إلا نصـحاً وحكمة .

وبوهن ومكابدة عاجله عبد الفتاح قائلاً :

الآن تدعي الحكمة والوفاء .

وأنت الذي لم تحفظ عشرة أو إخاء .

قربتك مني ، حقاً بعد فوات الأوان ، ولكن حدسي بك كـان سليماً ، فما أن انتقلتُ من الدنيا ، حتى رحتَ تنهش لحمـي ، وتفتـت عظمي و .... فقاطعه السيد نافع دون توقف :

لا يا عزيزي ، فما نهشت لحمك ولا فتت عظامك ، ولكـن من نهش لحمك وفتت عظامك هم من حاولوا ميراثك بعـد أن حـاولوا قتلك ، أظنك قد علمت بما دار من مذبحة كانت عليها محاكمة العصـر التي أتي إليها من خان العِشرة ، وخان الأمانة ، من أغرق ناريمـان ، ثم حاول قتلك لما ظنه من أنك مقدم علي قتله ، المحاكمة التي أتي إليها عمر يطلب منهم الحكم علي بالحياة ، لأعـاني المزيـد مـن الآثـام ، ولأعاني المزيد من العقاب في الآخرة بعد ما علم فيها ألا شيء يضـيع ، وما حاولته إنما كان محاولة إصلاح ما أفسدتَه وناصحوك ، ولـم يصدقوك ، حاولت أن أرد المظالم ، وأعيد الحقوق التي شـرعها الله ، وكنتَ قد ظننت نفسك ظل الله ، بل كدت أن تقول للناس أعبدوني مـن دون الله ، بعد أن غرك من خدعوك ، وفيك راحوا ينفخـون ، حتـى ظننت أنك بهم جامع الشتات ، فبعتهم الوهم ، وباعوك الفُتات .

***

وهنا كانت قد حلت نوبة جديدة من نوبات خروج الروح فعجـز كل عن الكلام ، وبدا الألم علي الوجوه ، والمعانـاة تعتصـر الجسـد وتفتت ما سرها عند الله ولا تتوه .

وفي طرفة عين كانت روح جديـدة تصـعد إلـي السـماء ، فانفتحت فتحة تعادل عين الإنسان ، وبان من الأرض ما انكب عليهـا من حرارة ، جعلت الناس فيها كأنهم سكارى وما هـم بسـكارى ، ولكن حرها شديد وتسلطها عنيد ، وما أن وصل الوافـد الجديـد إلـي السماء الثالثة حتى التف من حوله من كانوا يقضون فترة المشاهدة فيها وانهالوا عليه أسئلة عما يدور في الأرض وما يجري فيها ، وماذا عـن تلك المحاكمة التي تجري والسور الذي يريدون أن يصلوا بـه الأرض بالسماء .

أخذ الوافد نفسا عميقاً طويلاً كأنما يصعد من قدميه وتلفـت حوله وراح يحكي وهم منصتون :

منذ نحو سبع سنوات تقريباً ، أي فـي حـوالي عـام اثنـين وخمسين وخمسمائة وألفين ، كان قد تولي السلطة فـي الـبلاد وجـوه جديدة قديمة .

أجساد جديدة رُكبت فيها أرواح قديمة .

وكأن الزمن بها يدور .

كالأمطار لا تأتي بجديد لمياه البحار .

فهم من أحفاد مجموعة كانت قد تكونت قبلها بنحو ستمائة سنة تقريباً . فما هذه الفروع إلا من تلك الجذور .

فمنها تشرب وتتغذي ، ومنها تنبت البذور .

فكانت قد بدأت في بناء سور عال حول قرية من قرى مصر تسمي اسطنها أرادت به أن تحدد ممتلكاتها .

وتشدد استحكاماتها .

غير أن أجيالاً جاءت بعدها .

وما كان بالضرورة أن تسير علي دربها .

فكان بعض الأفراد يستطيعون تخطي هذا السور واختطاف بعض ثمرات زراعاتهم ، فأخذ من جاء بعدهم في تعلية السور .

والناس لا تعدم الوسيلة التي تتخطي بها هذا الحاجز المانع للطعام والنور .

أخذ السور يتعالى جيلاً بعد جيل ، حتى كاد يصل السماء .

وكأنهم يخشون من الناس .. حتى الدعاء . فأصبح من الصعب تخطيه .

ولما كان الناس في القرية قد هدهم الجوع ، واحتجبت عنهم الشمس والهواء حتى كاد الاختناق أن يودي بحياتهم .

راحوا يصرخون ، ولا من مجيب . يتألمون ، ولا من طبيب .

وكالبركان الخامد الفوار .

اندفعت جموعهم كما التتار ، تحطم كل ما في طريقها .

لم يكن أمامهم سوي تحطيم هذا السور . فانهار علي كل ما في طريقه .

و تدافعت أمواجهم كالجراد الزاحف . فأحدث ذلــك الــدوي الــذي تسمعون .

وقد حاول البوليس التدخل لمنع الجموع الزاحفة ، إلا أن تيار الغضب الهادر اجتاح كل ما في طريقه حتى أرغم البوليس علي التزام ثكناته ... و التقوقع .... ساحباً كل رجاله ومعداته .

مارس ٢٠٠٣

صدر للمؤلف : -

١- أفراغ الحمام		مجموعة قصصية
	المجلس الأعلي للثقافة	١٩٩٨
٢- الممنوع من السفر		مجموعة قصصية
	مركز الحضارة العربية	١٩٩٨
٣- البواكير في القصة القصيرة		دراسات نقدية
	مركز الحضارة العربية	١٩٩٩
٤- يونيو ٦٧ وأثره في الرواية المصرية		دراسات نقدية
	الهيئة العامة للكتاب	٢٠٠٠

تحت االتجهيز - التغيرات الاجتماعية في الرواية

المصرية - دراسات نقدية للرواية في خمسين عاما